عودة الروح

ويقظة الإيمان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هجري - ٢٠٠٩ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٢٢٠٤٩ / ٢٠٠٨م

الترقيم الدولي: I.S.B.N

٩٧٧-٤٤١-٥٩٥-٧

عودة الروح

ويقظة الإيمان

طبعة مزيدة ومنقحة

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسـلام على المبعوث رحمة للعالمين، سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فـإن الروح شيء عظيـم من أمـر ربي؛ ولذلك تقترن به الحياة، والإحسـاس والحركة، وتقترن به الحالة المعنوية للفرد؛ ومن ثمَّ الأمة.

فعندما تغيب الروح عن الفرد فإن الهزيمة النفسـية ستلاحقه حتى تصيبه، وما أخطر تلك الهزيمة على الفرد! وما أشد ضررها على حاضره ومستقبله حين تستحكم حلقاتها حول عنقه! وكيف لا وصاحبها يستسلم للواقع، وينكفئ على ذاته، ويبحث -عبثًا- عما يلهيه، ويُنسيه أمر نفسه.

.. الهزيمة النفسية والإحباط يقتلان الطموح، ويجعلان الشعور باليأس يتسرب إلى كيان الإنسان فلا يجد للحياة طعمًا، ولا للمستقبل قيمة ولا وزنًا.

وعندمـا تُصاب الأمة بالهزيمة النفسـية فإن مسـتقبلها لن يكـون أفضل من حاضرها، بل قد يكون أشد قتامة وبؤسًا..

ومما يدعو للأسف أن هناك آثارًا كثيرةً لهذه الهزيمة يلمسها المدققون والمراقبون لأحوال الأمة الإسـلامية، فالانبهار بالغرب وحضارته، والتبعية شـبه الكاملة له، وانطماس الهوية... ما هي إلا بعض مظاهر تلك الهزيمة.

ومع قسوة الواقع إلا أن الأمل لا يزال موجودًا في أن تستعيد الأمة عافيتها، وتنهض من كبوتها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]، هذا الأمل يحتاج إلى صاحب عزيمة وقَّادة حتى يترجمه إلى واقع حيٍّ.

.. يحتاج إلى من يُوقِف نفسه لقضية إيقاظ الأمة وبث الروح فيها -بعون الله- ويصمم على ذلك تصميمًا عظيمًا لا تراجع فيه، مستصحبًا هذا المعنى من رسوله وقدوته محمد ﷺ عندما قال لعمه أبي طالب:

«يَا عَمِّ، وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ»(١).

فلماذا لا تكون أنت -أخي القارئ- ذلك الرجل؟

لماذا لا يعتبر كل منا نفسه مسئولًا عن نهضة الأمة، وعودة مجدها من جديد؟!

إياك ثم إياك أن تستصغر نفسك وتقول: أنا لا أصلح؛ فيقينًا أنت تصلح لو صح عزمك وإرادتك.. أتدري لماذا؟!

لأن الأمر كله بيد الله، وهو وحده الذي يحرك الأحداث.. ينصر ويهزم.. يقدم ويؤخر.. يعطي ويمنع، وقد جعل -سبحانه- عطاءه لعباده مرتبطًا بصدقهم وقوة عزيمتهم وإرادتهم، كما قال رسول الله ﷺ:

«وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوَقَهُ»(٢).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٦١) دار التراث - القاهرة.

(٢) الطبراني في الأوسط (٣/ ١١٨، برقم: ٦٦٣)، ابن أبي الدنيا في الحلم (١/ ٢٠، برقم: ٤).

وقال رسول الله ﷺ: «**إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ**»[١].

... إذن باســتطاعتي، وباستطاعتك -بتوفيق الله تعالى- أن نكون ذلك الرجل، فإن كنت في شك من هذا فاقرأ معي صفحات هذا الكتاب.

• • •

(١) أخرجه النسائي: في الجنائز باب الصلاة على الشهداء (٤/ ٦٠، برقم: ١٩٥٣).

لمن الخلق والأمر والتدبير؟!

أمر الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذهاب إلى فرعون وتبليغه رسالة فحواها: أنه سبحانه هو ربه، ورب كل شيء ومليكه، وهو وحده المستحق للعبادة، وأنه يكره الظلم والطغيان، وأيَّد الله -جل ثناؤه- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بآية عظيمة تدل على صدقه، وأنه مبعوث من رب العالمين.. هذه الآية هي تحويل عصاه التي يتكئ عليها إلى حية عظيمة بإذن الله.

.. رأى فرعون الآية الكبرى لكنه لم يستسلم لله رب العالمين.. منعه الكبر، والخوف على مصالحه وامتيازاته التي توفرها له مكانته بين رعيته.

استشار بطانته في كيفية إبطال ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فطرأت له ولهم فكرة اتهامه بالسحر، وراقت لفرعون الفكرة، وانساق وراءها، فطلب ممن حوله إحضار جميع السحرة لمنازلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإبطال سحره: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٤- ٣٧].

يأتي السحرة، ويجتمعون في مكان فسيح، وتخرج جموع الناس لمشاهدة هذا الأمر المثير، ويأتي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويطلب منهم أن يُظهروا ما عندهم من فنون السحر ...

يُلقي السحرة عصيهم وحبالهم، فإذا بها تبدو للناس وكأنها تتحرك: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦].

فماذا فعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تجاه ما رآه وهو يعلم أن العصا التي معه يمكنها أن تتحول إلى حية عظيمة -بإذن الله- فتحطم سحرهم؟!

هل استهزأ بما فعلوه وقال لهم: سترون الفارق بين عصاي وعصيكم، وستعلمون من الأقوى، فالحية التي سترونها لا مثيل لها؟!

.. لا، لم يقل لهم هذا، بل قال لهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١]. لقد قفز بهذه الجملة عبر كل الحواجز والمألوفات الأرضية، ووضعهم أمام الحقيقة الكبرى التي تقوم على أساسها السماء والأرض وما فيهن، فلن يُبطل السحر عصا أو حية، بل سيبطله الله عَزَّوَجَلَّ.

.. نعم، هناك عصا ستتحول إلى حية -بإذن الله-، هذه الحية ستلتهم جميع الحيَّات المزيفة، ولكن كل هذا لن يتم إلا بأمر الله، وإمداداته المتوالية.

فجوهر الأمر أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الفاعل، وأنه -سبحانه- هو الذي سيُبطل السحر، وما الحية، وما العصا إلا صور وأشكال لا قيمة لها بدون المدد الإلهي المتواصل.

لله الأمر جميعًا

.. نعم، أخي، فالله عَزَّوَجَلَّ هو وحده الذي يملك هذا الكون كله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾ [المائدة: ١٢٠].

فكل ما تراه أمامك، وكل ما يوجد خلفك، وعن يمينك وشمالك فهو ملك ذاتي لله جل ثناؤه: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١].

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ﴾ [مريم: ٦٤].

ومع مُلكه لكل شيء فهو سبحانه المتصرف والمدبر لشؤون جميع خلقه -صغيرها وكبيرها- وهو القائم على تربية جميع مخلوقاته بالإمداد والرعاية فهو:

﴿ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

لا ينسى أحدًا من خلقه -حاشاه- وكيف ينساه ووجوده، ووجود جميع المخلوقات مرتبط به سبحانه، فإمَّا الإمداد الإلهي المستمر للجميع وإلا فلا حياة ولا وجود: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود: ٦].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك: ١٩].

فكافة أمور الخلائق وما يستلزمها من مقومات الحياة والحركة والسكون، وما يتعلق بوجودها من علاقات متشابكة بين أنواعها المختلفة أو بين النوع الواحد.. كلها بيده سبحانه، هو الذي يدبرها ويتولى أمرها: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

.. كل شيء في هذا الكون قائم به، يستمد احتياجاته منه سبحانه، فجميع إمدادات الخلائق في خزائنه وحده لا شريك له: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [المنافقون: ٧].

.. الإمداد بالنوم والاستيقاظ.. الشعور بالراحة أو التعب.. القيام أو القعود أو الجلوس.. الضحك أو البكاء.. الكلام أو الإنصات.. الشهيق أو الزفير.. الهضم أو

الامتصاص أو التمثيل الغذائي.. كل هذا وغيره يستمد وجوده وفاعليته من خزائن الله، ولا يوجد أي مصدر آخر في هذا الكون يقوم بذلك: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر: ٢١].

عنده خزائن كل شيء

عندما طلب الله عَزَّوَجَلَّ من الملائكة أن تخبره بأسماء الموجودات على ظهر الأرض كانت فحوى إجابتهم: كيف نخبرك بشيء لم تُعلِّمنا إياه: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة: ٣٢].

.. فالعلم لا يُستمد إلا من خزائنه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٦٨]. وأي فهم، أو حكمة، أو حجة تأتي على لسان أحد فمن عنده سبحانه:

- ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].
- ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣].
- ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

.. وعندما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة تقاتل مع المؤمنين في بدر، وأنزل كذلك النعاس والمطر، ذكَّرهم بأن هذه الأشياء لا تُحدث نصرًا بذاتها.. لماذا؟ لأن النصر لا بد وأن يأتي من عنده سبحانه: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠].

.. الدنيا كلها ظلمة، وأي نور فيها فهو مستمد من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥].

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور: ٤٠].

.. والرحمة التي ترى مظاهرها الكثيرة في الحياة.. كلها مستمدة من خزائن الرحمة الإلهية: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر: ٢].

قال رسول الله ﷺ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، أَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»(١).

حتى الرحمة التي كانت في قلب رسول الله ﷺ فهي مستمدة من خزائن الرحمة الإلهية: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

.. وأي جود، وأي كرم تراه في أحد فهو مُستمَد من خزائن الجود والكرم الإلهي.. جاء في الأثر: «أَنَا الْجَوَّادُ وَمِنِّي الْجُودُ، أَنَا الْكَرِيمُ وَمِنِّي الْكَرَمُ»(٢).

.. وكل آثار لقوة تراها في الحياة فهي مستمدة من خزائن الله: ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩].

وعندما قالت عاد: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ ﴾ كان الرد الإلهي: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ ﴾ [فصلت: ١٥].

..والشعور بالسكينة، والسلام مستمد من خزائنه: ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب باب جعل الله الرحمة مائة جزء (٧/ ٩٨، برقم: ٦٠٠٠)، ومسلم: في التوبة باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٤/ ٢١٠٨، برقم: ٢٧٥٢).

(٢) أورده ابن رجب في لطائف المعارف (ص: ١٦٣) دار ابن حزم. وأسنده الأصفهاني في حلية الأولياء إلى الفضيل بن عياض (٨/ ٩٢).

«اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ»(١).

.. والصبر من خزائنه: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

.. والثبات من عنده: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤].

.. والشفاء من عنده: «.. لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ»(٢).

.. والتقوى من عنده: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

.. والتوبة في خزائنه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

.. والتوفيق من عنده: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: ٨٨].

.. والتيسير كذلك: «اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا»(٣).

.. والعزة كلها من عنده: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠]... فسبحان من بيده ملكوت كل شيء.

.. سبحانه، لا رب غيره، ولا إله سواه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (١/ ٤١٤، برقم: ٥٩١).

(٢) رواه البخاري: كتاب المرضى باب دعاء العائد للمريض (٧/ ١٢١، برقم: ٥٦٧٥)، ومسلم: كتاب السلام باب استحباب رقية المريض (٤/ ١٧٢١، برقم: ٢١٩١).

(٣) رواه ابن حبان: في صحيحه (٣/ ٢٥٥، برقم: ٩٧٤).

هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعتقدها ونوقن بها، ونشهدها، ونشهد بها: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

يدبر الأمور كلها

الله عَزَّوَجَلَّ هو وحده الذي يدير هذا الكون ويتابعه.. يقدم ويؤخر.. يخفض ويرفع.. يقبض ويبسط.. يحيي ويميت.

لم يفلت منه سبحانه زمام الكون لحظة واحدة -حاشاه: **﴿هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾** [البقرة: ٢٥٥].

أَزِمَّة الأمور كلها بيده: **﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾** [الزمر: ٦٢، ٦٣].

فترتيب الأمور والأحداث، والعلاقات المتشابكة بين الأشخاص، ومقدار أرزاقهم المادية والمعنوية.. كل ذلك وغيره يتولى الله عَزَّوَجَلَّ تدبيره وترتيبه بما يناسب مصالح عباده: **﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾** [الشورى: ١٢].

فعلى سبيل المثال:

هناك (مبلغ) من المال سيتقاضاه رجل (ما) نظير عمله بالتدريس في مدرسة من المدارس.

.. هذا المال الذي قدَّره له الله لن يبقى كله معه، بل سيتوزع أغلبه على العديد من

الأشـــخاص قد يبلغون المائة؛ ما بين سائق، أو صاحب مطعم، أو بائع للصحف، أو صاحب مغســـلة، أو مسكين، أو بائع أدوات منزلية، أو طبيب، أو صاحب صيدلية، أو ... ، وكل واحد من هؤلاء له في علم الله نصيب محدد من هذا الراتب، وســـيأخذه في وقت محدد لا يعلمه إلا الله.

.. هذه الترتيبات المرتبطـــة بالزمان والمكان.. الذي يديرها ويحرك الأحداث في اتجاه وقوعها في الزمان والمكان المقدر هو الله وحده لا شريك له.

.. هو الذي يوجه تفكـــير صاحب الراتب في وقت (ما) إلى الذهاب لمتجر (ما) لشراء شيء يُذكِّره به، ليقوم بتوصيل الرزق (المقدَّر) لصاحب المتجر في ذلك الوقت، ويشعر في وقت آخر بصداع وهو يسير في الطريق فيجد بالقرب منه صيدلية، فيدخلها ويشتري منها دواءً ليقوم بتوصيل الرزق المقدر لصاحب الصيدلية في هذا الوقت.

يقف في الطريق العام ينتظر وســـيلة مواصلات تنقله لمدرســـته، وكلما مرت به مركبة لا يجد في نفســـه رغبة لركوبها لأســـباب مختلفة، حتى تأتي مركبة محددة -منذ الأزل- فيركب فيهـــا ليتم تحصيل الأجرة منه، لتكون جزءًا مقدَّرًا من رزق صاحب المركبة عليه أن يُحصِّله في ذلك الوقت.

وهكـــذا يتم توزيع الراتب على هؤلاء المائة -إن افترضنا أنهم مائة فقط- ووراء هؤلاء عشرات بل مئات يتولى الله عَزَّوَجَلَّ توزيع أرزاقهم، ويوجههم لجمعها من أفراد محددين: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وليس الرزق فقط الذي يتولى سبحانه تقديره بين الناس؛ بل كل ما يتعلق بتسيير حياتهم.. يكفيك أن تتذكر أن الله عَزَّوَجَلَّ يقبض جميع أرواح العباد عند النوم، ويعيدها لهم عند اليقظة، ولم يحدث -ولو مرة واحدة- أن حلَّت روح شـــخص في شـــخص

آخر، وكيف يحدث هذا والله هو الذي يتولى هذا الأمر كما يتولى جميع الأمور:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢].

هذا هو ربك الحي القيوم

يروي أحد الأصدقاء أن أحد معارفه قابله وأعطاه مظروفًا به مبلغ من المال، وطلب منه أن ينفقه في أوجه الخير، ووضع صاحبنا المظروف في جيبه ثم افترقا، وبعد لحظات قابله صديق آخر بتلهف شديد، واشتكى له من ضائقة مالية شديدة ألمَّت به، وأخبره بأنه يريد على وجه السرعة قدرًا (محددًا) من المال حتى يتجاوز الضائقة، فتذكر صاحبنا المظروف الذي في جيبه، فأعطاه إياه وطلب منه أن يُحصي ما فيه، وإذا بالاثنين يفاجآن! فلقد كان المظروف يحتوي على المبلغ المطلوب دون زيادة أو نقصان: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧].

.. وآخر يحكي بأنه صعد يومًا الحافلة وكانت مزدحمة، فلم يجد مكانًا للجلوس، وكان يحمل على كتفه ابنته الصغيرة، وبينما المركبة تسير في طريقها، شرد ذهنه في الماضي، وتذكر خطأ جسيمًا ارتكبه في حق أحد الأشخاص منذ سنوات بعيدة، ولا يعرف كيف يصل إليه ليستسمحه، وتذكر يوم القيامة، والحساب والقصاص، فتأثر تأثرًا شديدًا، ودمعت عيناه، وبينما هو في هذه الحالة إذ بيد تمتد إليه من أحد الركاب الجالسين فتأخذ منه طفلته ليُجلسها بجواره، فالتفت صديقنا لصاحب اليد ليفاجأ بأنه هو ذات الشخص الذي كان يتذكره منذ لحظات ولا يدري كيف يصل إليه، فانتابته لحظة ذهول ثم أقبل عليه يستسمحه ويسترضيه.

.. وصديق آخر يروي أنه كان في يوم من الأيام نائمًا على أريكة، وفوق هذه الأريكة لوحة ضخمة معلقة على الحائط، وفي أثناء نومه انتبه وقام -تلقائيًّا- لينام على الأريكة المقابلة، ثم غطَّ في نوم عميق، وبعد دقائق استيقظ على صوت ارتطام شديد بالأرض، فنظر أمامه والفزع يتملكه، وإذا باللوحة الضخمة قد سقطت على الأريكة التي كان نائمًا عليها ثم على الأرض:

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

.. وفي أحد البلدان التي يضطهد فيها الدعاة إلى الله، وفي أثناء إحدى تلك المحاكمات الظالمة، أراد القاضي أن يستمع إلى أدلة الإثبات التي تُدين بعض الدعاة، وكانت من هذه الأدلة:

تسجيلات صوتية لهم، فطلب القاضي إحضار جهاز التسجيل للاستماع لهذه التسجيلات المفتراة، وعندما جاءوه به طلب تجربة الجهاز أولًا، فبحثوا هنا وهناك حتى وجدوا (شريطًا) مسجلًا عليه آيات من القرآن، فتناوله ووضعه في الجهاز، وضغط على زر التشغيل فإذا بصوت القارئ ينبعث من الجهاز، ويُجلجل في قاعة المحاكمة، وترن أصداؤه في جنباتها بقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧]، فاضطرب القاضي ومن حوله، وسارع بإغلاق الجهاز وهو في غاية التوتر.

والأمثلة كثيرة، وكلها تؤكد وتبرهن على أن لهذا الكون كله ربًّا واحدًا، يديره، ويتابعه ويتعهده، ويمده بما يقيمه ويصلحه... لا يغفل عنه لحظة واحدة:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢].

قانون السببية

ولكي يستطيع الناس ترتيب أمورهم في الحياة، فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لها نظامًا تقوم عليه، وقوانين تسير عليها، وجعل سبحانه هذا النظام يقوم على قانون السببية، بمعنى أن الحصول على النتائج يأتي من خلال استخدام أشياء -مادية أو معنوية- هذه الأشياء لا تُحدث بنفسها أيَّة نتائج، ولكنها سبب وشكل وستار يتنزل عليه المدد الإلهي، فالماء جعله الله سببًا للإرواء، والطعام سببًا للشبع، والنوم سببًا للراحة..، ولكن بدون المدد الإلهي المتواصل فلا قيمة لهذه الأسباب، فالماء سبب شكلي للإرواء، أما الذي يروي فهو الله عَزَّوَجَلَّ، ولو لم تتنزل الفاعلية والإرواء من خزائنه -سبحانه- ما ارتوى الظمآن، وهكذا في بقيه الأمور، ويُجسّد هذا المعنى بوضوح قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لسيدنا محمد ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ**»(١).

فله وحده الفاعلية المطلقة في هذا الكون، فهو سبحانه الذي يحملنا في البر والبحر والجو، وما السيارة، وما الطائرة، وما أرجلنا إلا أسباب شكلية لا قيمة لها بدون المدد الإلهي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

تأمل معي قوله تعالى في بيان هذه الحقيقة في قصة نجاة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من الغرق بعد ركوبه السفينة التي مكث طويلًا في بنائها: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٣].

(١) رواه مسلم: كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى (٤/ ١٧١٨، برقم: ٢١٨٦).

نعـــم -أخي- هذه هي الحقيقة، فالذي حمل نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الله، وما السفينة إلا ألواح خشبية ومسامير لا قيمة لها بدون المدد الإلهي: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: ٤١].

فإن كانت الحياة قائمة على قانون السببية، إلا أن الحقيقة التي لا مرية فيها هي أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يحرك كل شيء في هذا الكون، وهو الذي يُنشئ النتائج من خلال الأسباب، أو بدونها:

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧].

كل شيء بأمره وإمداده

هـــذه -إذن- حقيقة الحياة، فكل ما يوجد في جســدك -أخــي- من إمكانات وقــدرات، لا قيمة لها لو تخلى الله عنها ولم يمدها بفاعليتها لحظة بلحظة، وآنًــا بآن، فالأحبال الصوتية التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ كســبب للنطق، لا يمكنها أن تتحرك حركة واحدة إلا إذا جاءها المدد من الخزائن الإلهية:

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١]، وانقباض العضلات وانبساطها والحركة والعدو والرمي يتم بإمداده: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾** [الأنفال: ١٧].

.. حتى الضحك والبكاء: **﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾** [النجم: ٤٣].

فما من حركة في هذا الكون إلا والله من ورائها: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥].

ولا مثقال ذرة

يقينًا لا توجد مثقال ذرة في هذا الكون يمكن لها أن تتحرك بذاتها دون إمداد من الله.. انظر مثلًا إلى النبات واقرأ هذه الآية التي تؤكد أن الله تعالى قائم عليه في كل مرحلة من مراحل نموه يبث فيه الفاعلية وينقله من طور إلى طور: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وتأمل في الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان وكيفية انتقاله من مرحلة إلى مرحلة ليزداد يقينك بهذه الحقيقة: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

.. نعم -أخي- هذه هي حقيقة الوجود: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٤].

حقيقة الربَّانية

هذه الحقيقة كانت تهيمن على رسول الله ﷺ في كل أموره وأحواله، وكانت تصبغ كلماته وتوجيهاته لأصحابه ولأمته من بعده.

فكان ﷺ إذا غزا قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي، وَأَنْتَ نَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**»(١).

وكان ﷺ يقول: «**إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ وَاللهُ يَهْدِي، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، واللهُ يُعْطِي**»(٢).

ويقول ﷺ: «**مَا أُوتِيكُمْ مِنْ شَيْءٍ، وَلَا أَمْنَعُكُمُوهُ، إِنْ أَنَا إِلَّا خَازِنٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ**»(٣).

وعندما قال له البعض: يا رسول الله غلا السِّعر، فَسَعِّر لنا، فقال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى الْخَالِق، الْقَابِض، الْبَاسِط، الرَّزَّاق، الْمُسَعِّرُ..**»(٤).

---

(١) رواه بهذا اللفظ أبو داود (٤/ ٢٧٠، برقم: ٢٦٣٢)، والبزار (١٣/ ٤٥٤، برقم: ٧٢٢٧) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه بلفظ قريب منه الإمام أحمد في المسند (٢٠/ ٢٥٥، برقم: ١٢٩٠٩)، والترمذي (٥/ ٤٦٤، برقم: ٣٥٨٤)، وابن حبان (١١/ ٧٧، برقم: ٤٧٦١)، وصححه الضياء المقدسي في المختارة (٦/ ٣٣٩، برقم: ٢٣٦١).

(٢) رواه أحمد (٢٨/ ١٣٣، برقم: ١٦٩٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٤٧٠) رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن.

(٣) أخرجه أحمد (١٣/ ٤٩٤، برقم: ٨١٥٥)، وأبو داود (٣/ ١٣٥، برقم: ٢٩٤٩) وعده ابن دقيق العيد في جملة الأحاديث التي رواها من أخرج له الشيخان في صحيحهما (الاقتراح في بيان الاصطلاح ص: ٩٤).

(٤) رواه أحمد: (٢٠/ ٤٦، برقم: ١٢٥٩١)، والترمذي (٣/ ٥٩٧، برقم: ١٣١٤)، وقال: حسن صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (٣/ ٣٦): (إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَقَدْ صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالتِّرْمِذِيُّ).

فإذا ما نظرنا لجيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نجد أن هذا المعنى كان حاضرًا في حياتهم بشكل أساسي، فهذا أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لرسول الله ﷺ بعد غزوة بدر: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلته المشركين، لئن **أشهدني الله** قتال المشركين، ليرين الله ما أصنع»[١].

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقص على من حوله قصة إسلامه، وكيف أنه بعد أن ذهب إلى مكة وحذَّره المشركون من سماع محمد ﷺ حتى لا يفتنه، ويسحره بكلامه، فيقول: فوالله ما زالوا يحدثوني في شأنه، وينهوني عن أن أسمع منه، حتى قلت: واللهِ لا أدخل المسجد إلا وأنا سادٌّ أذني.

قال: فعمدت إلى أذني فحشوتها كرسفًا -أي قطنًا- ثم غدوت إلى المسجد، فإذا برسول الله ﷺ قائمًا في المسجد، فقمت قريبًا منه، **وأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله**[٢]...

وعندما خرج عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سرية مع بعض الصحابة لقتل اليهودي أبي رافع - سلام بن أبي الحقيق - في حصن خيبر، ودخل ابن عتيك الحصن، ووصل إلى أبي رافع وقتله، ثم عاد إلى أصحابه يبشرهم، ويحثهم على سرعة الخروج من المكان إذا به يقول لهم: النجاء، فقد **قتل الله أبا رافع**[٣].

وهذه زنيرة الرومية يعذبها أبو جهل وعمر بن الخطاب -قبل إسلامه- حتى فقدت بصرها، فقال لها أبو جهل: إن اللات والعزى هما اللذان أذهبا بصرك، فماذا

(١) رواه البخاري: كتاب المغازي باب غزوة أحد (٠٥/ ٣٦-٣٧، برقم: ٤٠٤٨).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٢).
(٣) رواه البخاري: كتاب المغازي باب قتل أبي رافع عبدالله بن أبي الحقيق (٥/ ٣٢، برقم: ٤٠٣٩).

قالت له وهي في هذه الحال الصعبة التي قد تفتن أقوى الأنفس؟!

قالت: «وما تدري اللات والعزى من يعبدها، ولكن هذا أمر من السماء، وربي قادر على أن يرد بصري»، وبالفعل رد الله بصرها، فقالا: لقد سحرها محمد[١].

وهذه حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اللهم قتلًا في سبيلك ووفاة ببلد نبيك ﷺ» قالت: فقلت: وأنَّى يكون هذا؟! قال: يأتي به الله إذا شاء[٢].

هل نترك الأسباب؟!

ليس معنى أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يبث الفاعلية في الأسباب، وأنها لا قيمة لها بدون إمداده أن نترك الأخذ بالأسباب، ونتجه مباشرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ من أجل الحصول على النتائج، فهذا لا يجوز ولا يصح؛ لأنه -سبحانه- لو أراد منا ذلك ما خلق الأسباب، وما أمرنا بالأخذ بها، ولئن كانت الأسباب لا قيمة لها بدون الله، إلا أنها تُعد بمثابة الستار الذي يتنزل عليه أمر الله وقدره، وعلى المسلم أن يقيم هذا الستار بالقدر المتيسر والمتاح أمامه.

ومع أخذ المسلم بالأسباب، وإقامته لهذا الستار إلا أنه لا ينبغي عليه الركون إليها، أو الاعتماد عليها في حصول النتائج، وإلا تحول هذا الستار إلى جدار يحجبه عن الله.

انظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوجه صاحب الناقة إلى ربطها -كسبب لعدم

(١) ذكرها ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٠١) باختصار.

(٢) رواه البخاري: كتاب فضائل المدينة (٢/ ٢٧٥، برقم: ١٨٩٠)، وذكره بهذا اللفظ ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٥٢).

شرودها- ويوجهه كذلك إلى التوكل على الله في إنجاح هذا السبب فقال له: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»(١).

وتأمل ما حـــدث للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقد نفد ماؤهم وأرادوا الوضوء والشرب فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بذلك.. فماذا فعل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

طلب منهم إحضار ما تبقى عندهم من ماء، ثم وضع فيه أصابعه الشريفة، فنبع من بينها الماء ليشرب الجميع ويتوضأ(٢).

فهنا استنفد رســـول الله ﷺ الأسباب الموجودة، وشـــكَّل الماءُ القليل «الستار» الذي تنزّل من خلاله المدد الإلهي.

فعلينا -إذن- أن نجتهد في الأخذ بالأســـباب المتاحـــة أمامنا، مع يقيننا بأنها لا تفعل شيئًا بذاتها، فالفاعل هو الله، وإنما نأخذ بها لأننا مأمورون بذلك.

التوكل وإنجاح الأسباب

ويؤكد هذا المعنى محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على اتخاذ رســـول الله ﷺ الزاد وهو ذاهب للتعبد في غار حراء فيقول: وفي هذا بيان للسنة النبوية في اتخاذ الزاد والعمل بالأســـباب، وأن التوكل على الله ليس في ترك الأسباب التي وضعها الله، بل

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٨، برقم: ٢٥٧١) من حديث أنس وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَ هَذَا، وقد أخرجه ابن حبان عن عمرو بن أمية الضمري (٢/ ٥١٠، برقم: ٧٣١) وصحح الزركشي هذا الإسناد كما في فيض القدير للمناوي (٢/ ٧)، وقد روي بلفظ (قيدها وتوكل) عند ابن خزيمة والطبراني والحاكم. وقال العراقي والذهبي: إسناده جيد.

(٢) رواه البخاري: كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢٠٤، برقم: ٣٥٧٢ - ٣٥٧٦) بروايات مختلفة.

التــوكل هــو تفويض الأمر إلى الله في إنجاح هذه الأســباب؛ لأنهــا لا نُجح لها من طبيعتها، وإنما نجحها بتوفيقه وتيسيره، لا رب غيره[١].

فالمؤمن يجمع بين الأمرين -كما يقول ابن القيم- بجرد عزمه للقيام بالأســباب حرصًا واجتهــادًا، وَيُفرِّغ قلبه من الاعتماد عليها، والركــون إليها، تجريدًا للتوكل، واعتمادًا على الله وحده، وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح؛ حيث يقول: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْــتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ**»[٢]، فأمر ﷺ المؤمن بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان: تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها[٣].

وخلاصة القول:

إن الذي يدير الكون ويتعهده ويتابعه هو الله وحده لا شريك له، وأنه سبحانه هو الذي أمرنا باتخاذ الأسباب دون الركون إليها أو التعلق بها.

• • •

(١) كنوز مختارة من السنة (ص: ١٦) لمحمد عبد الله دراز، دار القلم - الكويت.
(٢) رواه مسلم: كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٤/ ٢٠٥٢، برقم: ٢٦٦٤).
(٣) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٦٤٠).

الإمداد على قدر الاستعداد

الله عَزَّوَجَلَّ هو رب كل شيء ومليكه، ومدبر أمـــره.. هذه هي الحقيقة التي يقوم عليها الوجود كله.

أما الإنســـان -أي إنســـان- فهو مخلوق من مخلوقات الله، حياتـــه كلها متعلقة بإمدادات ربه إليه، ولو تركه لحظة واحدة لتوقف فيه كل شيء.

والإنسان إذ يعيش في الحياة بفضل إمدادات ربه؛ فإنه -يقينًا- لا يقدر على فعل أي شيء -مهما صغر- إلا إذا أذن له الله بفعله، وفتح له خزائنه.

لذلك كان من الضروري أن نُقَدِّم المشيئة الإلهية عند العزم على فعل أي شيء.

نُقَدِّمهـــا ونحن على يقين بأن الأمر كله لله: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

ولئـــن كان الله عَزَّوَجَلَّ قد خاطب رســـوله محمد ﷺ -وهو ســـيد البشر- قائلًا: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فماذا عن بقية البشر؟!

هـــل يمكـــن أن يكون لأحد منهـــم صلاحية أو قـــوة ذاتية في هـــذا الكون؟! ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالله عَزَّوَجَلَّ هو خالق كل شيء، وهو ربه يمده بما يحتاجه، وما الإنسان إلا مخلوق صغـــير ضئيل في هذا الكون الرحيب، لا يمكنه -بمفرده- أن يُنفِذ إرادته، فإرادته لا تنفذ إلا من خلال موافقة الله على إنفاذها؛ ومن ثَمَّ إمداده بما يظهرها.. من هنا ندرك

بعضًا من معاني قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦].

فلو حشد المرء ما يمكن حشده من أسباب فلن يصل إلى النتيجة المتوقعة لها إلا إذا أَذِن الله وفتح له خزائن ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

وعندما قام نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتدبير أمر الحيلة التي من خلالها كان ينوي استبقاء أخيه معه، ونجح في ذلك، نجد التعقيب القرآني يُذكِّر بحقيقة الأمر وبأن ما حدث إنما حدث بإذن الله ومشيئته وإمداده حتى يرسخ المعنى في الأذهان: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يوسف: ٧٦].

العجز والفقر الذاتي

والمتأمل لسير الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وهم أكمل البشر، يجد أنهم كانوا يعيشون في حقيقة عجزهم وفقرهم الذاتي والمطلق لله عَزَّوَجَلَّ، فهذا شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقر بها عندما يُخيِّره قومه بين العودة إلى ملتهم أو إخراجه ومن معه من قريتهم، فيرد عليهم قائلًا:

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

وبمثل هذا أجاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه في حواره معهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وكذلك كان حال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أخذته ومن معه الرجفة: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـَٰىَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ومثل ذلك نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين راودته امرأة العزيز عن نفسه وهددوه بالسجن، قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

وكان رسولنا محمد ﷺ يعيش بكيانه كلِّه في هذه الحقيقة.. فهذا عبد الله بن حوالة الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: بعثنا رسول الله ﷺ لنغنم على أقدامنا فرجعنا فلم نغنم شيئًا، وعرف الجهد في وجوهنا، فقام فينا فقال:

«اللَّهُمَّ لَا تَكِلْهُمْ إِلَيَّ فَأَضْعُفَ عَنْهُمْ، وَلَا تَكِلْهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَيَعْجِزُوا عَنْهَا، وَلَا تَكِلْهُمْ إِلَى النَّاسِ فَيَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ»(١).

أين حرية الاختيار؟!

فإن قلت: وأين حرية الاختيار؟ وأين الإرادة الحرة التي أتاحها الله للإنسان والتي على أساسها يترتب الثواب والعقاب؟!

(١) رواه أحمد (٣٧/ ١٥١، برقم: ٢٢٤٨٧)، وأبو داود: كتاب الجهاد باب في الرجل يغزو يلتمس الأجر والغنيمة (٣/ ٤١، برقم: ٢٥٣٥) وحَسَّن إسناده ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٩)، والحاكم (٤/ ٤٧١) وقال الذهبي: صحيح.

.. نعم، أتاح الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان حرية الاختيار(*)، إلا أن الذي يترجم ويُفعِّل اختياراته هو الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢]، بمعنى أن العبد له أن يختار ما يريد فعله بإرادته الحرة، ولكن الذي يمكنه من ترجمة هذا الاختيار إلى أرض الواقع هو الله عَزَّوَجَلَّ.

• • •

(*) أتاح الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان حرية الاختيار في الأمور التي سيحاسبه عليها، أما الأمور التي ليس للإنسان فيها اختيار كشكله، وطوله، وجنسه، ورزقه.. فلن يُحاسب عليها.

كيف نستجلب الإمداد الإلهي؟

الإنسان مخلوق عاجز وفقير فقرًا ذاتيًّا ومطلقًا، لا يملك مقومات تسيير شؤونه بنفســه، بل يحتاج إلى ربه وإلى إمداداته المتوالية لترجمة اختياراته وإقامة حياته.. هذه هي الحقيقة.. ليبقى السؤال عن كيفية استجلاب هذه الإمدادات؟

الإجابة عن هذا السؤال أجملها الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْــتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمُكُمْ.. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ**»[1].

(فاســتهدوني.. فاستطعموني.. فاستكسوني) كلها كلمات تدل على تمكن الرغبة ممن يطلبها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الهمزة والسين والتاء في هذه الكلمات -كما يقول أهل اللغة - للطلب، بمعنى أنكم إذا أردتم الهداية أو الطعام أو الكسوة فاطلبوها من الله، فعلى قدر عزمكــم وحرصكم على تحصيلها يكون إمداد ربكم إليكم.. فالإمداد على قدر الاستعداد.

ما هو العزم؟

فإن قلت: ولكن ما هــو العزم؟! هل هو كل ما يفكر فيه الإنســان ويُحدِّث به نفسه؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والآداب والصلة باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤، برقم: ٢٥٧٧).

أجاب العلماء عن هذه الأسئلة وقالوا بأن ما يدور داخل الإنسان إما أن يكون هاجسًا، أو خاطرًا، أو حديث نفس، أو همًّا، أو عزمًا.

فالهاجس هو بداية التفكير بصورة عامة، فإذا اتجه التفكير إلى شيء بعينه سُمّي: (خاطرًا)، فإذا قلَّب الإنسان فكره في هذا الشيء من داخله وباطنه سُمِّي (حديث نفس)، فإذا تحركت إرادة الإنسان إلى فعل شيء ما سمي: (همًّا)؛ لأن الهم هو ترجيح قصد الفعل بأن يميل إلى الشيء ولا يصمم على فعله. والهاجس والخاطر وحديث النفس لا إثم على صاحبه ما لم يتحدث أو يعمل به، كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ**»(١).

(والهَمُّ) يماثل الثلاثة السابقة في رفع الإثم والمسئولية عن صاحبه ما لم يقل أو يعمل، ويفوقها في إثبات الثواب لصاحبه، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ (هَمَّ) بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ (هَمَّ) بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً**»(٢).

أما (العزم) فهو فوق (الهَمُّ)، وهو أعلى مراتب القصد، وهو العقد القلبي الذي يتقرر على أساسه القول والعمل؛ لذلك كان (العزم) أول درجات المسئولية قبل القول والعمل، ويترتب عليه الثواب والعقاب(٣).

أي أن العزم هو الحرص والتصميم الجازم على فعل شيء ما.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٦، برقم: ٥٢٦٩).

(٢) البخاري في الرقاق باب من هم بحسنة أو سيئة (١١/ ٣٢٣) مسلم (١/ ١١٨) في الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب.

(٣) في الفقه الإسلامي المعاصر د. عبد الستار فتح الله سعيد (ص: ٣٣، ٣٤)، دار القلم، نقلًا عن الموسوعة الفقهية مجلد ٣٠ بحث العزم (ص: ٨٨).

وقد سُئل سفيان الثوري: أيؤاخذ العبد (بالهمَّة)، قال: إذا كانت عزمًا أُوخِذ[١].

والنيَّة: هي القصد، أي عزم القلب على أمر من الأمور.. وعلى ذلك فهي أقرب لمعنى العزم؛ لذلك كان من شروط التوبة النصوح: العزم، أي التصميم الجازم أن لا يعود إلى فعل المعصية التي ارتكبها.

أولو العزم

إذن فالمطلوب من العبد العزم والإصرار على فعل الخير ليكون المدد من الله عَزَّوَجَلَّ على قدر هذا العزم، ويتفاوت العزم من شخص لآخر، ولقد وصل نفر قليل من البشر لأعلى درجات العزم على فعل ما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ من الاستقامة على أمره، ودعوة الخلق إليه، مع الاستعداد لتحمل أشد الصعوبات وأقسى الآلام في سبيل ذلك، وهؤلاء هم الذين سماهم الله عَزَّوَجَلَّ: «أولي العزم من الرسل» وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فالإمداد على قدر الاستعداد.. تأمل قوله تعالى عن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

فحجر الزاوية -إذن- في قضية الإمداد هو العزم والتصميم؛ لذلك أوضح القرآن أن أهم أسباب مخالفة أبينا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأكله من الشجرة التي نُهي عنها هو قلة عزمه في ذلك: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ [طه: ١١٥].

---

(١) المصدر السابق.

عزم الأمور

وإن كانت قوة العزيمة تختلف من شخص لآخر، فإن الأمور كذلك تختلف في قدر العزيمة المطلوبة لبلوغها، فهناك أمور تحتاج إلى عزيمة شديدة مثل ما ذكر في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقوله تعالى على لسان لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

فالصبر من الأمور التي تحتاج إلى عزيمة شديدة، فمع أنه -كغيره- يتنزل من عند الله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، إلا أنه يحتاج إلى عزيمة شديدة من العبد لكي يتنزل عليه من الخزائن الإلهية كما فعلت البقية الباقية مع طالوت عند مواجهة جالوت وجنوده: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

البداية من العبد

إذن فالبداية منك أيها الإنسان..، لا تلم أحدًا على تقصيرك.. على مستواك.. على عدم نجاحك.. فالإمداد على قدر الاستعداد، فمن يرد شيئًا ويصمم على بلوغه يصل إليه.. لا، لا، بل يوصله الله إليه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ

﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]. ويؤكد هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «.. **وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهَ**».. والمتأمل للحديث من أوله يجده يدور في نفس المعنى: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهَ**»(١).

أي أن الذي يريد العلم عليه أن يطلب ذلك، ويعزم عليه فيُعلِّمه الله، والذي يريد الحلم عليه أن يعزم عزيمة صادقة على بلوغه، فيرزقه الله الحلم، وهكذا في كل الأمور مثل العفة والصبر.. ففي الحديث: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ..**»(٢).

فالتاء هنا تدل على التكلف والمحاولة الجادة للوصول للعلم، أو الحلم، ... والعزم على ذلك، والمعنى أنه من يريد العلم أو الحلم أو غير ذلك ويعبر عن رغبته تلك بعزم يترجمه إلى عمل جاد فإن الله يمده بما يريد.

فلو أراد (متخاصمان) الصلح بصدق وعزما على ذلك، أصلحهما الله: ﴿**إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ**﴾ [النساء: ٣٥].

ومَن يُرد الهداية بصدق يهده الله: ﴿**فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا**﴾ [الجن: ١٤].

والذي لا يريد الهداية لا يهديه الله: ﴿**فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ**﴾ [التغابن: ٦].

﴿**كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ**﴾ [آل عمران: ٨٦].

---

(١) الطبراني في الأوسط (٣/ ١١٨، برقم: ٦٦٣) ابن أبي الدنيا في الحلم (رقم: ٤).

(٢) رواه البخاري: كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة (٢/ ١٥٧، برقم: ١٤٦٩) ومسلم: كتاب الزكاة باب فضل التعفف والصبر (٢/ ٧٢٩، برقم: ١٠٥٣).

.. والذي يريد أن يدعو الناس إلى الله ويحببهم فيه، عليه أن يعزم عزيمة صادقة ويشتد حرصه على ذلك.. جاء في الأثر: «لما أهبط الله آدم إلى الأرض قال له: يا آدم أحببني، وحببني إلى خلقي، ولا تستطيع ذلك إلا بي، ولكن إذا رأيتك حريصًا على ذلك أعنتك عليه»[١].

.. والذي استدان من شخص (ما) مبلغًا من المال، وهو في قرارة نفسه ينوي بصدق ويعزم على أدائه، رزقه الله ما يسد به دينه، كما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ يَنْوِي أَدَاءَهُ كَانَ مَعَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ، وَسَبَّبَ اللهُ لَهُ رِزْقًا**»[٢].

سؤال الله العزيمة على الرشد

يقول ابن رجب في شرحه لقول رسول الله ﷺ: «**وَالْعَزِيمَةُ عَلَى الرُّشْدِ**»: العزيمة على الرُّشدِ مبدأ الخير؛ فإن الإنسان قد يعلم الرُّشد وليس له عليه عزم، فإذا عزم على فعله أفلح، «والعزيمة»: هي القصد الجازم المتصل بالفعل، وقيل: استجماع قوى الإرادة عَلَى الفعل، ولا قدرةَ للعبد عَلَى ذلك إلا بالله؛ فلهذا كان من أهم الأمور سؤال الله العزيمة عَلَى الرُّشد، وفي «المسند» عن عِمران بن حُصَين قال رسول الله ﷺ لرجل:

«**قُلْ: اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي**»[٣]؛ فالعبد يحتاج إلى الاستعانة بالله، والتوكل عليه في تحصيل العزم (الراشد)، وفي العمل بمقتضى العزم

(١) ذكره ابن رجب في استنشاق نسيم الأنس (ص: ١٢٧) - مكتبة الخاني - الرياض.

(٢) الحديث بروايته وطرقه في مجمع الزوائد (٩/ ٣١٤) بتحقيق حسين سليم أسد باب فيمن نوى قضى دينه واهتم به.

(٣) رواه أحمد (٣٣/ ١٩٧، برقم: ١٩٩٩٢)، قال الهيثمي (١٠/ ١٨١): رجاله رجال الصحيح، وابن حبان (٣/ ١٨١، برقم: ٨٩٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٣٨).

بعد حصول العزم، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإذا كانت العزيمة صادقة، وصمَّمَ عليها صاحبها، وحمل على هوى نفسه وعلى الشيطان حملة صادقة، ودخل فيما أُمر به من الطاعات فقد فاز.. وعَوْنُ الله للعبد عَلَى قدر قوة عزيمته وضعفها، فمن صمم على إرادة الخير أعانه وثبته»[١].

عزيمة امرأة

عندما صدق عزم امرأة عمران في أن يكون الجنين الذي تحمله في بطنها لله، وألا يكون فيه أي حظ من حظوظ النفس، كافأها الله عَزَّوَجَلَّ بولادة مريم الصِّديقة، والتي أصبحت بعد ذلك أمًّا لرسول الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٥- ٣٧].

إن تصدق الله يَصدُقْك

جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ، فآمن به واتبعه، فقال: أُهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض الصحابة، فلما كانت غزوة (خيبر) غَنِم رسول الله ﷺ شيئًا، فقسَم، وقسَم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء

(١) جزء من الكلام على حديث شداد بن أوس «إذا كنز الناس الذهب والفضة» من مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٣٤٨).

دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «**قَسَمْتُهُ لَكَ**»

قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرْمى إلى ههنا -وأشار إلى حلقه- بسهم فأموت فأدخل الجنة.

فقال: «**إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ**»، فلبثوا قليلًا ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار.

فقال النبي ﷺ: «**أَهُوَ هُوَ**»؟

قالوا: نعم، قال: «**صَدَقَ اللهُ فَصَدَقَهُ**»، ثم كفنه النبي ﷺ في جُبَّة، ثم قَدَّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكِ، فَقُتِلَ شَهِيدًا وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ**»(١).

أرأيت -أخي- ماذا قال رسول الله ﷺ للأعرابي: «**إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ**» نعم، فهذا هو مفتاح الوصول إلى المعالي: صدق الإرادة والعزيمة، ولقد كان الرجل بالفعل صادقًا فيما طلبه، فحرك الله عَزَّوَجَلَّ الأحداث في اتجاه تحقيق مقصده ليس بالموت شهيدًا فقط، ولكن بأن يموت بالطريقة التي عزم عليها وتاقت لها نفسه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١].

(١) أخرجه النسائي في الصلاة على الشهداء (٤/ ٦٠، برقم: ١٩٥٣)، والطبراني (٧/ ٣٢٦، برقم: ٧١٠٨)، والحاكم (٣/ ٦٨٨، برقم: ٦٥٢٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٢٣، برقم: ٦٨٧١) وصححه العيني في نخب الأفكار (٧/ ٤٠٠).

اصدق الله فيه

وتنقل لنا كتب السيرة في قصة إسلام أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن أسيدًا دخل غاضبًا يحمل حربته، ويريد شرًا بمصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -الذي أرسله النبي ﷺ ليعلم الناس الإسلام في المدينة- وعندما رآه أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على هذه الحال قال لمصعب: ويحك يا مصعب، هذا سيد قومه، وأرجحهم عقلًا: أسيد بن حضير، فإن يُسلم يتبعه في إسلامه خلق كثير، **فاصدق الله فيه**. فلما صدق (مصعب) الله في (أسيد): فتح الله قلب أسيد، وانشرح صدره، وانفرجت أساريره، ودخل في الإسلام[1].

الخليفة الخامس

عندما تولى عمر بن عبد العزيز إمارة المؤمنين عزم أن يسير بالأمة بسيرة الخلفاء الراشدين، ويعيدها إلى ما كانت عليه، وذلك بعد سنوات طويلة من انقضاء تلك الخلافة الراشدة، وما حدث بعدها من بعض الانحرافات، والمظالم التي أبعدت الأمة عن النهج القويم.

.. لقد عزم عمر على هذا ولا يملك سوى هذا العزم الصادق، فالأجواء المحيطة به لم تكن لتشجعه على هذا، وأعوانه لم يكونوا آنذاك كأعوان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لكنه صدق في عزمه، وأرسل رسالة إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب يطلب منه أن يرسل له كل ما عنده من سيرة جده عمر بن الخطاب من أقضية وسنن حتى يسير على هديه، فكان مما كتبه له:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٥، ٤٣٦).

«أمـــا بعد، فـــإن الله عَزَّوَجَلَّ ابتلاني بما ابتلاني به من ولاية أمر المســـلمين عن غير مشورة مني ولا طلب، فأسأل الله الذي ابتلاني بهذا الأمر أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتـــابي هذا، فابعث لي بكتب عمر بن الخطاب، وأقضيته وســـيرته، فإني عازم على أن أتبع سيرته، وأسير على نهجه إن أعانني الله على ذلك، والسلام».

فأرســـل إليه ســـالم بن عبد الله برســـالة تؤكد له المعنى الذي تتحدث عنه هذه الصفحات، بأن الأمر وإن بدا صعبًا إلا أن صدق العزم يذلل جميع الصعاب، وكيف لا والذي يحرك كل شيء هو الله، والله يريد منا صدق العزم ليحقق لنا ما نريد، حسبما تقتضيه حكمته وعلمه المحيط جل شأنه.

يقول سالم في رسالته لعمر:

«أما بعد، فقد جاءني كتابك الذي تذكر فيه أن الله عَزَّوَجَلَّ ابتلاك بإمرة المســـلمين من غير طلب منك ولا مشـــورة، وأنك تريد أن تسير بسيرة عمر، فلا يَفُتْك أنك في زمان غير زمان عمر، وأنه ليس في رجالك من يماثل رجال عمر، **ولكن اعلم أنك إن نويت الحق وأردتـــه، أعانك الله عليه، وأتاح لك عمالًا يقومون لك به، وأتاك بهم من حيث لا تحتسب، فإن عون الله للعبد على قدر نيته، فمن تمت نيته في الخير تم عون الله له، ومن قصرت نيته نقص من عون الله له بقدر نقص نيته**»[1].

ولقد كان عمر بن العزيز صادقًا فيما ادعى، وكان عزمه أكيدًا، فماذا حدث؟

لقـــد أعاد الله عَزَّوَجَلَّ بـــه الأمة إلى ما كانت عليه في الســـابق حتى ســـماه العلماء والمؤرخون «الخليفة الخامس».. كل ذلك حدث في زمن قياسي في نحو سنتين.. فماذا تقول بعد ذلك؟!

(١) الزهد لأحمد بن حنبل أخبار عمر بن عبد العزيز رحمه الله (ص: ٣٠٢).

على قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِم وَتَأتي عَلى قَـدرِ الكِرامِ المَكـارِمُ

وَتَعظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صِغارُها وَتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

رجل بأمة

يحكي الدكتور محمد موســى الشريف عن صديقه الدكتور عبد الرحمن السميط رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: حكى لي الدكتور الســميط ذات يوم عن بداية عمله في إفريقيا.. فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: درست الطب في جامعة بغداد، ثم ذهبت إلى بريطانيا لعمل الدراسات العليا في الطب، وهناك سمعت عن مؤتمر كولورادو في أمريكا عام ١٩٧٨م والذي اجتمع فيه رؤوس الضلال في العالم بقيادة الفاتيكان، وقرروا أنه ما إن تأتي سنة ٢٠٠٠ -أي بعد اثنين وعشرين عامًا من تاريخ المؤتمر- إلا والقارة الإفريقية نصرانية بالكامل!

وألقوا بثقلهم، ووضعوا خططهم، وجاءوا بأموالهم وهي أموال عظيمة ...

وسمع السميط كما سمعنا، ولكن شتان بين سمع وسمع، أو قل بين عزم وعزم!

لقد أخذ السميط قرارًا وعزمًا بأن يقف وحده أمام ذلك المخطط العالمي، ويكون شوكة في جنب هؤلاء جميعًا، وقرر أن يقارع النصرانية العالمية كلها وحده!

نزل الســميط إلى الكويت ومنها غادر إلى إفريقيا يحمل بين جنبيه هَمَّ الإســلام والمسلمين في القارة الإفريقية وذلك عام ١٩٨١م، وعمل هناك عمل الأبطال ووقف ضد كل هؤلاء وحده..

فماذا كانت ثمرة عمله بفضل الله؟

لك أن تتخيل -أخي- أنه بعــد ٢٧ عامًا من العمل في إفريقيا أي عام ٢٠٠٦م كانت ثمرة عمله أن أســلم على يديه خمســة ملايين ونصف المليون، وأنه بنى خمسة

آلاف مسـجد، وحفر سـبعة آلاف بئر، معظمها ارتوازي أي على عمق حوالي ألف وخمسمائة متر، وبنى مدارس وجامعات، وكفل آلاف اليتامى، ....

لقد عمل خلال هذه السنوات في أربع وثلاثين دولة إفريقية، ...

سبحان الله!

يقول الشريف: ما رأيت في العصر الحديث كله همة تصل إلى همة السـميط، وما أستصغر نفسي كما أستصغر نفسي أمام ذلك الرجل الفذ صاحب الهمة العالية.

قصة الطالب والمسألتين

ينقل لنـا الدكتور توفيق الواعي في كتابه «الإيـمان وإيقاظ القوى الخفية» قصة عجيبـة تؤكد المعنى الذي نتحدث عنه من أن العزيمـة الأكيدة هي مفتاح الوصول للمعالي.. يقول:

هناك قصة لشـاب غفا أثناء حصة الرياضيات، واسـتيقظ على صوت جرس انتهاء الحصة، ونظر إلى السبورة، وقام بكتابة المسألتين الموجودتين فوقها، وقد افترض أنهـما الواجب المدرسي لهذا اليـوم، فعاد إلى البيت وأخذ يجتهـد طيلة النهار والليل لحلهما.. لم يستطع الشـاب حل أي منهما، إلا أنه واصل المحاولة بقية الأسبوع، وفي نهاية الأمر، اسـتطاع حل إحداها وذهب بها إلى الفصـل، فلما رآها المدرس أصيب بالذهول؛ فقد اتضح أن المسألة التي قام بحلها كان المفترض عدم وجود حلٍّ لها[1]، وكان المدرس قد كتبها على السـبورة من باب تعريف الطلاب ببعض المسائل التي لم يتوصل أحد إلى حلها.

(١) الإيمان وإيقاظ القوي الخفية د. توفيق الواعي (ص: ٤٨) - دار البحوث العلمية - الكويت.

دَواؤُكَ فيـكَ وَما تُبصِـرُ وَدَاؤُكَ مِنـكَ وَما تَشـعُـرُ

وتَزعُمُ أَنَّكَ جُرمٌ صَغـير وَفيكَ انطَوى العالَمُ الأَكبَرُ

• • •

الهزيمة النفسية وغياب الروح

عندما ننظـر إلى واقع الأمة الإسـلامية نجد أنها في أشـد حـالات الضعف والتخلف، وليس هذا فحسـب، فالضعيف يمكنه أن يقوى، والمتخلف عن الركب يمكنـه اللحاق إن عزم على ذلك، ولكن الأخطر من حالة الضعف التي تمر بها الأمة هو تسرب الشـعور باليأس من إمكانية النهوض، وشـيوع ثقافة الإحباط والهزيمة النفسية بين غالبية أفراد الأمة.

ولقد تفنن أعداء الإسلام في ابتكار الوسائل التي تحطم معنويات المسلمين، وتُشعرهم باليأس، وتجعلهم يفقدون الأمل في عودة مجد الإسلام من جديد.

فمن تلك الوسائل تسريبهم المعلومات عن خططهم للسيطرة على بلاد الإسلام، وكشفهم للطرق التي يسـتخدمونها لإذلال المسلمين مع إدراكهم عدم قدرتهم للرد عليهم فتكون النتيجة:

مزيدًا من الانكسـار الداخلي في النفوس، ولعلنا نتذكر تلك الصور التي نشرتها وسـائل الإعلام بعد احتلال الولايات المتحدة للعراق، والتي تُبين حجم التعذيب والإهانـة وإهدار الآدمية التي تعرض لها أهل العراق المسـلمون فيما سـمي وقتها بفضيحة (سـجن أبو غريب)، ولا يخامرني شك في أن نشر هذه الصور بهذه الطريقة كان متعمدًا -إلى حد كبير- ليخدم بالدرجة الأولى مخطط أعداء الإسلام الذي يرمي إلى إضعاف الروح المعنوية للمسلمين، والعمل على تيئيسهم، ونشر الشعور بالإحباط بينهم، والدليل على ذلك تلك الحالة التي أصابت الكثير من المسـلمين آنذاك، والتي

اضطرت بعضهم للذهاب إلى عيادات الطب النفسي للتخلص من الشعور بالكآبة والإحباط الذي أصابه.

الرسوم المسيئة

أخي.. تصور معي هذا المشهد:

بينما رجل يجلس آمنًا في بيته بين زوجته وبناته، إذ بعصابة من المجرمين يقتحمون داره، ويلتفون حوله، وبعد تدافع بينهم يتمكنون من الإمساك به، وشدِّ وثاقه، لينتشروا بعد ذلك في بيته ويبدؤون بالعبث في محتوياته، ثم إذا بأيديهم تمتد إلى زوجته وبناته وهو يصرخ ويصرخ ولا يستطيع أن يفعل شيئًا، ويشتد صراخه ولا مجيب، ثم يتركون النساء ويرتاحون قليلًا، ليعيدوا الكَرَّة بعد ذلك فيصرخ ويصرخ ولكن ليس كالصراخ الأول؛ فقد بدأت بوادر الهزيمة النفسية والانكسار تظهر عليه.. وبمرور الوقت يخفت صوته شيئًا فشيئًا حتى يتلاشى..

هذا المشهد ينطبق إلى حدٍّ بعيد مع حال أمتنا وما يفعله بها أعداؤها.

ويكفيك تأكيدًا على هذا المعنى ما حدث في موضوع نشر الرسوم المسيئة لرسول الله ﷺ، ففي عام ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) نشرت جريدة في الدانمارك رسومًا مسيئة للرسول ﷺ، فانتفض العالم الإسلامي وخرجت الجماهير الغاضبة في مظاهرات حاشدة تشجب وتندد، وعقدت المؤتمرات، وتوالت البيانات التي تستنكر الحدث و...، ثم هدأت العاصفة..

وبعد قرابة العامين أُعيد نشر الرسوم مرة أخرى في أكثر من جريدة دانماركية وأوربية، فثار العالم الإسلامي مرة أخرى ولكن بصورة أقل بكثير من المرة الأولى،

وهكذا ينجح أعداؤنا -ولو مرحليًّا- في تحطيم معنويات المسلمين، والدفع بهم نحو مزيد من الانكفاء على الذات والانغماس في الملهيات، وقتل الأمل في نفوسهم، وبذلك لا تقوم لهم قائمة، ولا يعلو لهم صوت، فهم يعلمون جيدًا أن الهزيمة النفسية هي أشد أنواع الهزائم فتكًا بالأمم والأفراد.

خطورة الهزيمة النفسية على الأمة

إن أخطر مرض يمكن أن تصاب به أمة من الأمم هو اليأس والانكسار الداخلي.

يؤكد هذا المعنى محمد أمين المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (المسئولية)، فيقول:

اليأس القتَّال، والخَوَر المميت، والثقة المفقودة، كل هذه هي العدو الحقيقي، والعقبة الكبرى التي تواجه المسلمين، أما العدو الخارجي: الصهيونية، والصليبية، والدعوات الملحدة، فكلها أمرها يهون إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا لنقر فيها معاني الإيمان، واليقين، والصبر، والجلد، والثقة، والعمل.

إن أكبر المصائب أن يصاب المرء في نفسه، ذلك أن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تُجابه المصاعب وتصمد للشدائد.

ولقد بيَّن الله تباركت أسماؤه بشأن يهود بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم لم يُؤتَوا لنقص في ذخيرتهم أو عددهم أو منعة حصونهم، ولكن الله تعالى أصابهم بذنوبهم من داخلهم؛ إذ قذف الله في قلوبهم الرعب، فكان ذلك أكبر المصائب وكان العامل في تسليم ديارهم وتخريب بيوتهم... قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

ويستطرد قائلًا:

ولقد أُتي المسلمون اليوم من قِبل أنفسهم، وقُذف الوهن في قلوبهم... قال أحد الباحثين المحدثين: إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط داخلية لا خارجية، وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها[١].

آثار الهزيمة النفسية على الفرد

عندما تتمكن الهزيمة النفسية من فرد (ما) إثر فشله المتكرر في بلوغ هدفه، فإن الإحباط يتسرب إلى نفسه، واللامبالاة تسيطر على حركته.

.. تنحط اهتماماته، وينغمس فيما يشبع غرائزه وشهواته.

ينظر دومًا إلى النصف الفارغ من الكوب... يكثر من النقد للآخرين... لا يحب الناجحين، ويعمل دومًا على تشويه صورتهم والبحث عن نقائصهم.

.. كلامه بلا روح، وآراؤه انهزامية.

.. تسيطر على مخيلته أحلام اليقظة، والأماني الكاذبة بالاشتهار بين الناس، وفعل الخوارق والمعجزات.

(١) المسئولية لمحمد أمين المصري (ص: ٨٤، ٨٥) - دار الصفوة - القاهرة.

غياب الروح عن العاملين في حقل الدعوة

الهزيمة النفسية لها آثار سلبية خطيرة على أي محيط تغزوه، ولقد تعرفنا في الأسطر السابقة على بعض مظاهرها عندما تنال من الفرد، فإن كان هذا الفرد يعمل في حقل الدعوة الإسلامية؛ كانت الآثار أخطر، وكيف لا، والدعاة إلى الله، والعاملون للإسلام هم قلب الأمة النابض؟!

ولعل من أبرز صور الهزيمة النفسية عند العاملين في حقل الدعوة: «غياب الروح».

فإن قلت: وهل يمكن أن تغيب الروح عن هؤلاء وهم الذين يقومون بأشرف مهمة، ويشكلون حائط الصد الأساسي لحماية الأمة؟

تغيب الروح عندما يضعف الإيمان في القلب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

مع الأخذ في الاعتبار أن تطاول الزمن دون تحسن للواقع بشكل ملحوظ، والحصار الطويل للدعوة، بالإضافة إلى إلف الأعمال الدعوية المتكررة لها أثر كبير في إضعاف الروح عند بعض العاملين.

ولا يمكن إغفال التأثير السلبي لموجة المادية العنيفة التي تجتاح أمتنا، وما خلفته من آثار طالت الكثيرين، وغيرت بعض المفاهيم، ورفعت سقف الطموح الدنيوي عند أفراد المجتمع، فإذا ما انخرط الدعاة في المجتمع، وهم غير محصنين بالإيمان القوي، فإن آثار تلك الموجة ستصيبهم، ليزداد انجذابهم نحو الأرض والطين، فتضعف الروح، وتصاب العزائم بالوهن، ويصبح همُّ الواحد منهم هو كيفية تحصيل

أسباب الحياة المريحة له ولأبنائه، وينعكس ذلك على محيطه الدعوي بالسلب، ليصبح أداؤه أداءً روتينيًّا يفتقد الحماس والروح، وستراه يتحين كل فرصة للهروب من القيام بأعمال الدعوة، فإن قام بعمل تجده يتحرك بلا روح، وإن تكلم فكلامه مكرر يفتقد الانفعال الصادق؛ ومن ثم لا تكاد تجد أثرًا إيجابيًّا لكلامه أو حركته: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨].

.. وفي الوقت نفسه سيؤدي غياب الروح وضعف الإيمان إلى شيوع ثقافة الانهزامية والرضا بالواقع، والانبهار بأي تجربة تنجح ولو نجاحًا جزئيًّا في إبراز بعض المعالم الإسلامية وإن تخلت عن بعض ثوابت الدين، فالانبهار يعكس الضعف والوهن الذي أصاب القلوب وجعلها تستطيل الطريق وترضى بأي نجاح ولو كان زهيدًا.

وقد يؤدي غياب الروح عن البعض إلى محاولتهم فرض واقعهم على من حولهم، والاجتهاد في تبرير ما يفعلونه رافعين شعارات قد تقنع الآخرين وتدفعهم لتقليدهم في استرخائهم وانشغالهم بمصالحهم الشخصية على حساب العمل الدعوي، ومن هذه الشعارات: «مصلحة الدعوة تقتضي ذلك»، «نحن جزء من مجتمع مريض»، «الزمان تغير ولا بد من تغيير الوسائل».. وغير ذلك من الشعارات التي يتم تأويلها على غير وجهها الصحيح، فيؤدي هذا إلى مزيد من الاستسلام للواقع؛ ومن ثم تزداد نسبة البطالة الدعوية، ويقل تدريجيًّا عدد من يحمل همَّ الدين، ومن يعمل على إنقاذ نفسه أولًا وأمته والبشرية جميعًا بعد ذلك.

الثكلى والمستأجرة

عندما سأل أحد السلف أخاه قائلًا: ما لنا نذهب للاستماع إلى الحسن البصري

فنتأثــر بكلامه تأثرًا بالغًا، ونذهب إلى غيره فلا نشــعر بنفس الإحســاس والأثر؟! فأجابــه بكلام بليغ يشرح بإيجاز الفارق بين من يعمل بروح ورغبة في نفع الآخرين، وبين من يعمل بلا روح ولا مشــاعر، فقد قال له: «ليســت النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة».

ومع التأكيد على حرمة النياحة، إلا أن المعنى الذي تشــير إليه العبارة صحيح، ويشخص واقعًا موجودًا عند البعض.

فعندما تغيب الروح عن الفرد الذي يعمل في حقل الدعوة فإن أداءه يتحول من كونه صاحب دعوة يحمل همها، ويسعى لنجاحها وبلوغها الأهداف المطلوبة، إلى ما يشــبه (الــمُسْتَأجر) أو (الموظف)، الذي يؤدي عمله بلا روح، وينتظر دومًا موعد الانــصراف، ويفرح بأيام العطلات، ويحزن كلما زادت الأعباء عليه.. فأي خســارة تخسرهــا الدعوة حين يزداد عــدد (الموظفين) فيها، ويقل عدد مــن يحمل همها بين جوانحه؟!

اصمت.. لا تتكلم !!

وكما أن غياب الروح، وشيوع ثقافة اليأس والانهزامية والانجذاب نحو الدنيا، والغرق في بحر الشهوات هو أخطر مرض يمكن أن يصيب الأمة، فإن غياب الروح عن أصحاب الدعوات وتبدل اهتماماتهم، وضعف إيمانهم، لمن أشد الأخطار عليها، وعلى مشروعها الرامي لاســتئناف الحياة الإســلامية الصحيحــة وكيف لا، وعدد الأيدي العاملة سيتناقص تدريجيًّا؟!

ســيكثر الكلام والتخطيط والتنظير والجدال، وسيقل التطبيق والعمل، ناهيك عــن أن الأعمال التي قد يؤديها البعض ســتفتقد للروح، لتكــون النتيجة: عملًا بلا ثمرة، وجهدًا بلا أثر.. مجهودًا كبيرًا يبذل وأثرًا غائبًا.

يقول صاحب الظلال: «أيها داعية لا يصدِّق فعله قوله، فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة، فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال، ويؤيدها العمل هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين إلى العمل»[١].

وهذه كلمات صريحة للدعاة والعاملين للإسلام الذين يعانون من غياب الروح وضعف الإيمان يقول صاحبها مخاطبًا إياي وإياك:

.. عندما لا يحترق القلب شوقًا، والذهن همًّا: فلا تتكلم، وإلا فلن تجد أحدًا يُصغي إليك.

.. عندما لا يملؤك شعور بأن دعوتك هي قلب الكون، وروح الوجود، وأنها ميزان العالم، وصمام أمن وأمان له، فكيف تواتيك الشجاعة لمواجهة العالم كله؟!

.. عندما لا يلتهب في دمك عِرْقٌ يدفعك لتحدي قدرات هي أعظم من قدراتك، وإمكانات هي أعظم من إمكاناتك، فكيف إذن ستصنع الأعاجيب؟!

.. عندما لا تشعر بمسئوليتك في إنقاذ الإيمان مما يحيق به من خطر عظيم في العالم كله، فكيف تريد إذن من هذا العالم أن يفتح أذنيه ليسمعك؟!

.. عندما تصاب الروح بالفتور، وتنخفض درجة حرارة القلب، ويخبو أوار الفكر، فأنت مُتوَعِّك روحيًّا، فعليك أن تصمت؛ لأن الصمت هنا أبلغ من كل كلام ميت تقوله.

إن لم ترتب بيت نفسك أولًا فكيف تستطيع أن ترتب بيوت نفوس الآخرين[٢]؟!

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٦٩).

(٢) من كتاب «الضاربون في الأرض» لأديب إبراهيم الدباغ.

البداية.. عودة الأمل

فـإن كان الأمر كذلك، وإن كانت الهزيمة النفسـية، وغياب الروح من أشـد الأمراض التي يمكن أن تصيب الفرد والأمة، فلا بديل أمامنا من مقاومته، والتصدي له، ووضع هدف «**عودة الروح**» على أعلى سـلم الأولويـات، وبخاصة لدى قلب الأمة النابض ألا وهم «الدعاة إلى الله» وكل من يعمل في حقل الدعوة.

إن الأمل في نهوض الأمة من كبوتها قائم ما تعاقب الليل والنهار ...

ستظل الشمس بإشراقها كل يوم تذكرنا بأن ربنا قدير، وأن قدرته لا حدود لها، وأنـه وحده الذي يدير هذا الكـون، ويدبر أمر كل حركة وسـكنة فيه، وأن مقاليد الأمور وأزمَّتها جميعًا بيده..

لا تزال السماء مرفوعة بلا عمد، يمسكها الله عَزَّوَجَلَّ، فنرى من خلالها آثار قدرته وقوته غير المتناهية، لتتضاءل في أعيننا أي قوة أرضية وهمية لجبار متعجرف..

لا يـزال وعد ربنا الحق بالتمكين للمؤمنين وبنشر نـوره على العالمين قائمًا، ولا يزال نصره قريبًا في انتظار من يستحقه.

> **مع اليقين الجـازم بأنه وإن كان الأمل قائمًا ما دام الليل والنهار، إلا أنه يحتاج إلى أهل العزيمة والإيمان لكي يصبح واقعًا مشهودًا، وعندما يتأخر النصر فما علينا إلا أن نلوم أنفسـنا، ولا نعتذر بالقضاء والقدر، بل نجتهد في استكمال ما ينقصنا حتى نكون -بإذن الله- مهيئين لاستقباله.**

لا تعتذر بالقضاء والقدر ولا تستسلم للهزيمة

من هنا نقول -بيقين-: إن المفتاح الأعظم للوصول للمعالي هو التوكل العميق

الوثيق على ربنا جل شـــأنه، ثم وجـــود الرغبة والعزيمة الأكيـــدة والتصميم الجازم للوصول إليها، وعندما تُصاب العزائم بالخَوَر والضعف فلا نهوض للفرد ولا للأمة مهما امتلكت من إمكانات.

لذلك لا ينبغي علينا أن نعتذر بالقضاء والقدر لتبرير أي فشـــل يصيبنا، بل علينا أن نلوم أنفسنا.. نلوم إرادتنا وعزائمنا... نلوم صدقنا في طلب المعالي.

يقول محمد إقبال: المسلم الضعيف يعتذر دائمًا بالقضاء والقدر، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب، وقدره الذي لا يُرد[١].

تفاءل تفاءل ولا تيأَسَنْ ولا تعتذر بالقضا والقدر

إذا المرء يومًا أراد العلا فلا بد أن يستحِثَّ السَّيرَ

عطايانا سحائب مرسلات

ولقد اجتهد شاعر الإسلام -محمد إقبال- في بيان وتأكيد هذا المعنى في قصائده، وكان من أبرزها قصيدتان حاول بهما -كما يقول محمد حسن الأعظمي:

أن يستحث همم المسلمين إلى طلب الرفعة، والطموح إلى المجد، أما أولاهما فقد اتجه بها إلى الله تعالى شـــاكيًا ما أصاب المســـلمين من الأحداث التي تخلفت بهم عن ركـــب الحضـــارة، وهم الذين حملوا شـــعلتها، ورفعـــوا مصباحها لعصـــور الدهر وأجياله[٢]، وهي بعنوان «شكوى»، فكان مما جاء فيها:

---

(١) روائع إقبال للندوي (ص: ٧٩، ٨٠).

(٢) حديث الروح شعر محمد إقبال وعربه شعرًا الصاوي شعلان (ص: ٢١) - دار القلم دمشق.

كـنا جـبالًا في الجـبال وربـما سرنا على موج البحار بحـارا

بمعـابد الإفرنـج كان آذانـنا قبل الكـتائب يفتح الأمصارا

لم تنس إفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا

ثم يشتكي قائلًا:

مـاذا دهى الإسـلام في أبنـائه حتى انطووا في محنةٍ وعذابِ؟

فثراؤهم فقـرٌ ودولة مجـدهم في الأرض نهب ثعالبٍ وذئابِ

عاقبتـنا عدلًا فـهب لعـدونا عن ذنـبه في الدهر يوم عقـاب

عاشوا بثرواتنا وعشنا دونهم للموت بين الـذل والإمـلاق

أما القصيدة الثانية؛ فهي جواب الشـكوى، تخيَّلها إقبال «صوتًا سماويًّا» يدوي بصيحة الحق جوابًا لهذه الشـكوى[1]، وسـنذكر -أخي القارئ- بعضًا منها، وهي تؤكد المعنى الذي تحمله هذه الصفحات، ألا وهو أن بلاءنا الشديد هو ضعف العزم والإرادة لفعل الخير وبلوغ الآمال العظيمة بما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ..

يقول إقبال:

عطايانا سحـائب مرسـلات ولكن ما وجـدنا السـائلـينا

وكـل طـريقـنا نـورٌ ونـورٌ ولكـن ما رأينا السـالـكينا

ولم نجـد الجـواهر قـابـلات ضـياء الوحي والنور المـبينا

ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ لأجـرينا السـماء لهـم عيونا

(١) حديث الروح، شعر محمد إقبال، (ص: ٦٣).

وأخضعنا لملكهم الثريا ... وشيَّدنا النجوم لهم حصونا

ولكن ألحدوا في خير دين ... بنى في الشمس ملك الأولينا

تراث (محمدٍ) قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مُهملينا

لقد ذهب الوفاء فلا وفاءٌ ... وكيف ينال عهدي الظالمينا

إذا الإيمان ضاع فلا أمانٌ ... ولا دنيا لمن لم يحيي دينا

لأي مآثر القوم انتسبتم ... لتكتسبوا فخار المسلمينا؟

وأنتم تطمحون إلى الثريا ... بلا عزمٍ ولا قلبٍ سليما[1]

• • •

(١) قام بتعريب شعر إقبال الصاوي شعلان، انظر المصدر السابق.

ما الذي يمنعك

أن تكون ذلك الرجل؟!

بعد أن تذكرنا معًا هــذه الحقائق، وبعد أن تأكدنا أن مفتاح نجاح كل فرد بيده، وعليه يتنزل به توفيق الله تعالى، فما رأيك لو اعتبر كل واحد منا أن هذا الكلام موجهٌ إليه، وأنه ذلك الرجل الذي سيغير الأمة بإذن الله؟!

بلا شــك أن قوة العزيمة والتصميــم والإصرار على فعل شيء (ما) هو المفتاح الأساس للوصول إليه -بأمر الله- كما أسلفنا.

هذا المفتاح يمكننا أن نســتخدمه في أمور معيشتنا على مستوانا الشخصي، وهذا أمر لا غبار عليه، ولكن الأهم من ذلك هو اســتخدامه لإصلاح أمر هذه الأمة التي توارت بالحجاب، وأصبحت (**غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ**) بعد أن كانت (**خير أمة**)..

فمن لهذه الأمة ســوى رجال عقدوا العزم الأكيد، وصمموا على بلوغها مجدها من جديد؟!

إن الرجــل -كما يقول البنا- سر حياة الأمم ومصدر نهضاتها، وإن تاريخ الأمم جميعًا إنما هو تاريخ من ظهر بها من الرجال النابغين الأقوياء النفوس والإرادات[١].

إن الأمة تحتاج إلى رجال كما وصفهم الكواكبي:

---

(١) رسالة هل نحن قوم عمليون؟ للبنا.

ينبهــون الناس، ويرفعون الالتبــاس، ويفكرون بحــزم، ويعملون بعزم، ولا ينفكون حتى ينالوا ما يقصدون.

فلماذا لا تكون أنت من هؤلاء الرجال؟

أنا ضعيف وظروفي متشابكة

فإن قلت: ولكني ضعيف لا أصلح لما قصدت، ذكَّرتك بما تضمنته الصفحات الســابقة بأن الأمر كله لله، وأن القوة والقدرة والعلــم والإحاطة والخلق والإمداد والتدبير بيده ســبحانه، وكل ما يريده منا هو صدق العزم على تغيير أنفســنا، وتغيير أمتنا إلى الوضع الذي يرضيه.

ويؤكد ابن عطاء في حِكَمه المشــهورة على هذا المعنى فيقول: «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾» [الكهف: ٤٥].

ويعلق ابن عباد النفري على هذه الحكمة فيقول:

ومــن أغرب ما رأيته في هذا المعنى ما رواه عبد الصمد بن مُغفَّلٍ عن عمِّه وَهْبَ بن مُنبِّهٍ أن رجلًا قتل نفسًا فجاء إلى سائح (أي عابد) من سائحي بني إسرائيل، فسأله عن ذلك وهل له توبة؟ فرفع له السائح من الأرض عرجونًا[1] أبيض قديمًا حائلًا، ثم قال له: إذا اخضر هذا العرجون قُبلت توبتك، وأراد الســائح بذلك أن يؤيسه من التوبة لعظم ذنبه.

(١) العرجون: هو عذق النخل إذا يبس واعوج.

فأخذ الرجل العرجون وهو يطمع في التوبة ويعزم، فتاب وجعل يعبد الله زمانًا ويدعو حتى اخضر ذلك العرجون بإذن الله وقدرته[١].

فالأمر -إذن- عندي وعندك، فالله عَزَّوَجَلَّ يريد منا الحرص والتصميم والعزم الأكيد أن نكون من هؤلاء الرجال... أن نكون ربانيين، متواضعين، وأن نكون على استعداد لبذل كل ما نملك من أجل تبليغ دعوته، وتغيير وضع الأمة البائس، فإن رأى -سبحانه- منا ذلك، فيقينًا سيفتح لنا من خزائنه ما يصل بنا إلى ما عزمنا عليه؛ ألم يقل سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾؟! [الفتح: ١٨، ١٩].

واعلم -أخي- بأن الحرص والتصميم والعزم الأكيد يمكن أن يتوفر في أي شخص -إن أراد- بغض النظر عن عمره، أو جنسه، أو صحته، أو جاهه، أو مقدار ما يمتلك.. معنى ذلك أن قولك بأنك ضعيف وظروفك الحياتية متشابكة، ليس له أي علاقة بما نتحدث عنه، فكل ما هو مطلوب مني ومنك تصميم جازم وعزيمة وقَّادة تهيمن علينا، وهذا في متناول أيدينا جميعًا إن أردنا.

الخطوة الأولى للنجاح

وبعد اتخاذك لهذا القرار واستشعارك بأنك ستكون من أولئك الرجال الذين سينقذون الأمة -بإذن الله-: عليك أن تطلب من الله هذا الأمر.. أن تنطرح بين يديه سبحانه وتلح عليه إلحاحًا شديدًا بأن تكون ممن يصنع بهم مجد هذه الأمة، ولا تقطع إلحاحك وتضرعك إلى ربك ما حييت، فلقد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ بأن الخطوة الأولى

(١) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية لابن عباد النفري (ص: ٣١٦) -مكتبة الإيمان- القاهرة.

لبلوغ الهدف هي العزم الأكيد لبلوغه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١].

والخطوة التي تليها مباشرة هي التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، والاستعانة الصادقة به في بلوغ الهدف: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد جمع الأمرين قول رسول الله ﷺ: «.. **احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ..**»(١).

واقترب الوعد الحق

وتأكد -أخي- أن الله عَزَّوَجَلَّ يحرك أحداث هذا الكون في اتجاه التمكين لهذا الدين وإن بدت الأمور على عكس ذلك.. وكيف لا وقد وعد سبحانه بأنه سيُتم نشر نوره على العالمين: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾؟! [الصف: ٨].

قال رسول الله ﷺ: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ؛ بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ بِهِ الْكُفْرَ**»(٢).

ووعدنا -سبحانه- على لسان رسول الله ﷺ بأن الأمة ستنعم بخلافة على منهاج النبوة، بعد مرورها بعدة مراحل آخرها مرحلة يشيع فيها الظلم والاستبداد، فعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرسول ﷺ قال:

---

(١) رواه مسلم: كتاب القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٤/ ٢٠٥٢، برقم: ٢٦٦٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ١٥٤، برقم: ١٦٩٥٧)، والطبراني (٢/ ٥٨، برقم: ١٢٨٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٤): رجال أحمد رجال الصحيح. ورواه الحاكم (٤/ ٤٧٧، برقم: ٨٣٢٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

«تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيًّا، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ سَكَتَ»(١).

فإذا كان الأمر كذلك، وأننا الآن نعيش في مرحلة «الملك الجبري»، وأن المرحلة التالية هي مرحلة (خلافة على منهاج النبوة)، فلماذا لا تكون أنت ممن يستعملهم الله عَزَّوَجَلَّ في إتمام نوره وتحقيق وعده؟!

كل ما هو مطلوب: التصميم والعزم والإصرار وصدق التوكل والاستعانة بالله.

«إنما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها»(٢).

متى نؤثِّر في الناس؟!

إن تغيير حال الأمة لن يتم إلا إذا غيَّر أبناؤها ما بأنفسهم: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) أخرجه الطيالسي (١/ ٣٤٩، برقم: ٤٣٩)، وأحمد (٣٠/ ٣٥٥، برقم: ١٨٤٠٦)، والبزار (٧/ ٢٢٣، برقم: ٢٧٩٦) قال الهيثمي (٥/ ١٨٩): رواه أحمد في ترجمة النعمان والبزار أتم منه والطبراني ببعضه في الأوسط ورجاله ثقات. وانظر الحديث بطرقه ورواياته في مجمع الزوائد (١٢/ ٤٦) باب كيف بدأت الإمامة وما تصير إليه والخلافة والملك؟

(٢) رسالة إلى الشباب (ص: ١٧٣).

والواقع يخبرنا بأن هذا الأمر غاية في الصعوبة، فموجة المادية في علو، وانجذاب المسلمين نحو طين الأرض في ازدياد، ولكي يتم الأخذ بأيديهم إلى تغيير ما بأنفسهم، وتقوية الإيمان في قلوبهم، وتصحيح الأفكار والمعتقدات في عقولهم، والتأثير الإيجابي الدائم فيهم؛ لا بد من وجود رجال صادقين متوهجين يؤثرون فيمن حولهم بحالهم ومقالهم.

فالبداية الصحيحة للتغيير هي وجود الشخص المتوهج، صاحب الروح اليقظة، والإيمان الحي... إن كل كلام يصدر عن القلب -كما يقول محمد إقبال- يترك أثره في القلوب، والأفكار الصادقة لا أجنحة لها، لكنها تسبق الطيور، وكل كلام قدسي المنبع فهو أبدًا يتجه إلى العلا[1].

وفي هذا المعنى يقول محمد أمين المصري:

إن العامل الأساس في نجاح الداعية. ليس كثرة علمه ولا قوة بيانه وسحره، ولكن هنالك عاملًا قبل كل هذه الأمور: هو الإيمان بالدعوة التي يدعو إليها، والخوف الشديد مما يعتريها، والشعور بالأخطار التي تقع بسبب إهمال الدعوة.. إن مثل هذا الإنسان يصيح بالناس ويترك فيهم أقوى الآثار ولو كان أبكم[2].

الندوي يؤكد

ويؤكد أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه القاعدة فيقول:

لقد ضل من زعم أن العلماء يتفاضلون بقوة العلم، وكثرة المعلومات، وزيادة

(١) حديث الروح للصاوي شعلان (ص: ٦٣).
(٢) المسؤولية (ص: ٣١).

الذكاء، وأن الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية، وحسن اختيار اللفظ، ودقة المعاني، وأن المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة، وكثرة التأليف والإنتاج، وأن المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة، واستحضار المادة الدراسية، وكثرة المراجع، وأن المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة، وأساليب السياسة والحكمة واللباقة، **إنما يتفاضل الجميع بقوة الحب، والإخلاص لغايتهم.**

إذا فاق أحدهم غيره فإنما يفوقه؛ لأن الغاية أو الموضوع حلَّ في قرارة نفسه، وسرى منه مسرى الروح، وملك عليه قلبه وفكره، وقهر شهواته، واضمحلت فيه شخصيته، فإذا تكلم تكلم عن لسانه، وإذا كتب كتب بقلمه، وإذا فكر فكر بعقله، وإذا أحب أو أبغض فبقلبه[1].

ليست حماسة فقط

فإن قلت: وماذا أفعل بعد هذا التصميم والعزم الأكيد، والتوكل الصادق على الله عَزَّوَجَلَّ، لكي أكون ممن يساهم في إنقاذ هذه الأمة؟!

كانت الإجابة بأن المطلوب بعد ذلك هو السير في طريق الإصلاح وبناء المشروع الإسلامي والذي ينطلق من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، والتغيير المطلوب هو تغيير على منهاج النبوة، من خلال العمل على إصلاح الأفراد من داخلهم إصلاحًا متكاملًا يشمل إصلاح التصورات والمفاهيم عن الدين وعلاقته بالحياة، ويشمل إصلاح الإيمان وتقويته في القلوب، وكذلك تزكية النفوس وترويضها على ارتداء ثوب العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، مع دفعها للبذل والتضحية من أجل هذا الدين..

(١) روائع إقبال للندوي (ص: ٢٦).

التغيير المطلوب يبدأ بإصلاح الفرد فالبيت فالمجتمع.

ولكي تتم عملية الإصلاح المطلوبة لا بد من وجود عناصر مشعة، مؤثرة، متوهجة تتمثل فيها المعاني التي تدعو الناس إليها، فيخرج منها الكلام محملًا (بالحُرقة) على هذا الدين، والشفقة على المستمعين، والرغبة الأكيدة في إفادتهم وتغييرهم.

فلتكن أنت أحد هذه النماذج.

لتكن أنت كالنبراس المضيء الذي يؤثر في كل ما حوله، وهذا يستلزم منك أن تبدأ بقلبك فتنوره، وبنفسك فتزكيها، وبعقلك فتغذيه بالعلوم النافعة بإذن الله.

ويستلزم منك كذلك أن تضع يدك في يد كل من يريد الخير لهذه الأمة، ويحمل همَّ هذا الدين.. لا بد من التواصل معهم، والانتفاع بصحبتهم وتجاربهم، لتحقق معهم قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣].

ويستلزم منك أيضًا أن تستنهض همم القاعدين، فالنار مشتعلة والأمة بحاجة لكل جهد يُبذل في إطفائها.

وخلاصة القول:

أن المطلوب مني ومنك هو عزيمة أكيدة وإصرار عظيم على إعادة مجد الأمة بالإسلام من جديد، وترجمة هذه العزيمة بالاستعانة الصادقة بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل المحض عليه سبحانه في أن يبلغنا مرادنا، ثم البدء بإصلاح النفس، ومصاحبة الصالحين المصلحين، واستنهاض همم القاعدين، والانطلاق بين الناس والتركيز معهم في توضيح مفاهيم الإسلام الصحيحة، والأخذ بأيديهم لتغيير ما بأنفسهم من سلبيات، وإصلاح الإيمان في قلوبهم.

وحجر الزاوية -كما ترى- هو تلك القوة النفسية العظيمة التي ينبغي أن تتواجد باستمرار داخلنا كنتيجة للعزائم المشتعلة، (**والحُرقة**) الشديدة على الدين، وتأكد -أخي- أنه لا سبيل للنهوض إلا بهذا، فلا المال، ولا الجاه وحدهما، سينصران هذا الدين، بل سينصره -بإذن الله- جهد الأفراد المؤمنين المتوهجين.. جهد الرجال الكبار الذين يستشعرون أن خلاصهم بخلاص الأمة ونهوضها من كبوتها..

إن الدعوات الدينية الصادقة -كما يقول البنا- عمادها الإيمان قبل المال، والعقيدة قبل الأعراض الزائلة، وإذا وُجد المؤمن الصحيح وجدت معه وسائل النجاح جميعًا[1].

لذلك فإن من يريد أن يخدم الإسلام خدمة صحيحة تساهم في نهوض أمته من كبوتها فعليه بأن يتذكر أن الإسلام الآن بحاجةإلى جهد الأفراد المؤمنين المتوهجين -رجالًا ونساءً- أكثر من حاجته لأي شيء آخر.

• • •

(١) رسالة إلى أي شيء ندعو الناس؟ (ص: ٣٧).

كيف تبقى الروح يقظة والعزيمة مشتعلة؟!

من المتوقع أن تقفز بعض التساؤلات إلى الأذهان تدور حول كيفية إبقاء الروح يقظة والعزيمة مشتعلة، وبخاصة مع تسارع مستجدات الحياة وتقلباتها، وما يستلزمه ذلك من شغل الفكر والوقت؛ ومن ثَمَّ التأثير السلبي على التوهج وحمل هم الدين.

لا شك أن الحياة في هذا العصر تستهلك جزءًا كبيرًا من الفكر والجهد والوقت والمال، ومع ذلك فإن استسلامنا للأمر الواقع، والقناعة به، والقعود عن مهمة إنقاذ الأمة معناه وكأننا نقول لله عَزَّوَجَلَّ بلسان حالنا: يا رب استبدل بنا غيرنا؛ لأننا مشغولون بأمور الحياة وتوفير متطلباتها، ومعناه أن يستمر الوضع السيئ للأمة، بل وأن يزداد سوءًا وتدهورًا.

ومع القناعة بأن هناك بالفعل أثقالًا كثيرة تجذبنا نحو الدنيا وتشغلنا بها، إلا أن ذلك ليس معناه الاستسلام للأمر الواقع، بل لا بد من وجود وسائل مضادة تُبقي الروح يقظة، والعزائم متقدة، والقلوب حرة من أسر الدنيا.

أو بمعنى آخر: نحتاج إلى وسائل متجددة تقوم بتغذية مشاعر الرغبة والعزيمة لإنقاذ الأمة بشكل مستمر، ونحتاج كذلك إلى حسن التعامل مع العقبات التي تواجهنا، والتي يقف على رأسها الانشغال بالدنيا.

الشعور بالخطر وَقُود العزائم

ومن أهم وسائل إبقاء العزائم مشتعلة هو الاستثارة الدائمة لمشاعر الخوف والقلق، والشعور بالخطر، فكما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ...**»[1].

فمن خاف من شيء أدلج، أي سار بالليل ولم ينتظر الصباح؛ لأن شعوره بالخطر وقلقه مما هو آتٍ لا يجعله يهنأ براحة، فعلى قدر القلق، والشعور بالخطر من شيء (ما) يكون التشمير والعمل لتبديد هذا القلق ودفع هذا الخطر، ولو استدعى ذلك عدم النوم بالليل، والتضحية بوقت الراحة والاسترخاء.

وعلى سبيل المثال: لو أن رجلًا يجلس بين زوجته وأولاده يتناولون الطعام، فشاهدوا نارًا تشتعل في منزلٍ غير بعيد عنهم، فماذا سيكون رد فعلهم؟!.. سينتابهم القلق، ويتحفزون للمقاومة والعمل -ولكن- مع استمرارهم في تناول الطعام، فإذا وصلت النار إلى جيرانهم ازدادوا قلقًا، وتركوا طعامهم، فإذا وصلت إلى بيتهم انطلقوا في قوة خارقة لإطفاء النار.

من هنا نقول بأن إزكاء الشعور بالخطر هو الذي سيغذي -بعون الله- العزائم ويبقيها في حالة من الاشتعال والتوقد.

> «**فالشعور بالخطر ومواجهته يستثير كوامن النفس، وطاقات العقل، ويشد العضل، ويُدرب الطاقات البشرية على العمل، ويشحذها للتلبية والاستجابة**»[2].

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب ١٨ (٤/ ٦٣٣، برقم: ٢٤٥٠)، وقال: حديث حسن غريب، ورواه الحاكم (٤/ ٣٤٣، برقم: ٧٨٥١)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦٩٥).

إن استنفار أقصى ما يملكه الإنسان من إمكانات وطاقات لا بد وأن يمر من طريق القلق والشعور بالخطر، ولقد فهم أعداؤنا هذا الأمر جيدًا؛ لذلك نجد أنهم بعد انهيار المعسكر الاشتراكي في ثمانينيات القرن العشرين الميلادي، والذي كان وجوده يُشعر الغرب بالخطر، ويحرك العزائم، ويستفز العقول لإنتاج كل ما هو جديد في مراكز البحث العلمي وغيرها، قد اجتهدوا في إبراز (ضحية) جديدة توضع في (مقام العدو)، حتى يستشعروا دومًا بأن هناك خطرًا ماثلًا أمامهم، وكانت الضحية هذه المرة هي الإسلام، كما أعلنوا ذلك أكثر من مرة على لسان قادتهم في حلف الأطلنطي وغيره.

أخطارنا حقيقية

فإن كان الشعور بالخطر يحرك العزائم، فما أحوجنا إلى استحضار الأخطار التي تواجه الفرد والأمة وهي أخطار حقيقية، ومتنوعة، بل يكفي تذكر واحدة منها لإشعال عزائمنا جميعًا، ولعل من أهم تلك الأخطار ما يواجهه العالم الإسلامي من محاولات الاستئصال، وتضييع الهوية، تارة تحت شعار محاربة الإرهاب، وتارة من خلال حملات التنصير، والأخطر من ذلك هو المشروع الصهيوني وحلمه بالسيطرة على قلب العالم الإسلامي، ونجاحه -إلى حد كبير- في تحقيق الكثير من مراحله.

ولعل ما يحدث في فلسطين والعراق -كأمثلة على مآسي المسلمين- خير دليل على أن الأمر جدٌّ لا هزل فيه، وأن النار ليست بمنأى عن أحد، وأنه بين عشية وضحاها يمكن أن يتم استصدار قرار من مجلس الأمن باحتلال بلد آخر وآخر، وما يستتبع ذلك من تدمير، وقتل، وسبي، وتشريد لأهل هذا البلد.. فهل ننتظر دورنا في الذبح أم ننتفض، ونتحرك في ربوع الأمة لإيقاظها من سباتها قبل فوات الأوان؟

الأجيال الجديدة والذوبان

ومن الأخطار التي من شأنها أن تستنفر الطاقات إذا ما تم الانتباه إليها: التدمير الذي يحـدث في كيان الأجيال الجديدة، تلك الأجيال التي نشـأت وترعرعت أمام الفضائيات وما تبثه من خلاعة ومجون، وأمام الشبكة العنكبوتية وما فيها من انفتاح غير مأمون.

إنه مخطط شـديد المكـر: أن يتم التركيز على تدمير الشـباب من الداخل، حتى تصبح الأمة بلا مستقبل، والمستهدف من هذا التدمير هو أن يكون الشاب المسلم غير صالح للقيام بأي عمل يخدم قضايا أمته؛ لذلك نجد المصادر التي يتلقى منها الشباب المعلومات تقوم بالتركيز على استثارة الغرائز، والتوجيه إلى توافه الأمور، والانجذاب نحـو الأرض والطين، وإبراز نماذج وقدوات تافهة يتـم تركيز الضوء عليها لتكون مُثُلًا عليا لهم، ناهيك عن ثقافة السـخرية والاسـتهزاء بقيمنا وهويتنا التي يتلقاها هؤلاء الشـباب والتـي أحدثت هزة شـديدة لمنظومة القيم والأخـلاق والثوابت والمقدسـات في كيانهم، ولقد تطاير الشرر -ويالالأسـف- فأصاب بعضه الأجيال الجديدة الغضة في محيط الدعوة الإسـلامية؛ فإن لم نشمر لتدارك هذا الخطر الداهم، ونضاعف جهدنا مع الشـباب، ونعمل على تحصينهم -قدر المستطاع- من داخلهم، فإن المستقبل لن يكون مبشرًا، وستكون بيوتنا جميعًا في مرمى هذا الخطر الزاحف.

حرب الأفكار والمفاهيم

ومن المخاطر الشديدة التي تواجه الأمة: حرب الأفكار والمفاهيم التي يخوضها الغرب ضد الإسلام، والتي تطورت وسائلها بشكل لافت في الآونة الأخيرة.

فأعداء الأمة يدركون جيدًا أن للإسلام ومعانيه في نفوس أتباعه سلطانًا كبيرًا،

وأنهم مهما ألحقوا بالمسلمين من هزائم على شتى الجبهات فإن هذا لن يضمن لهم موت الأمة، ولا عدم إمكانية بعثها من جديد؛ ما دامت معاني هذا الدين قائمة؛ ومن ثم فإن فرصة إحيائها في نفوس المسلمين ستظل موجودة.

من هنا كان تركيزهم في الآونة الأخيرة على تغيير مفاهيم الإسلام وثوابته، بالتوازي مع عملهم الدائب على تغيير المسلمين.

وترمي خططهم في هذا الشأن إلى تفريغ مدلولات المفاهيم الإسلامية من معانيها الأصلية، حتى تصبح الصورة الذهنية المستقرة في عقول المسلمين مجتزأة ومشوهة.

فإذا حدث ذلك؛ صعب على الدعاة والمصلحين إحياء هذه المعاني في نفوس أبناء الأمة؛ لأن المفاهيم -ذاتها- قد تغير مدلولها.

ومثال ذلك: تغيير مفهوم الاعتدال الإسلامي، والتركيز على إظهار الاعتدال على أنه إطلاق الحريات بدون ضوابط، كحرية تبديل الأديان، وحرية الاختلاط بين الرجال والنساء، والمساواة بينهما في كل شيء...

بين الماضي والحاضر

.. لقد كان تركيز أعدائنا في الماضي على كيفية تغيير المسلمين ليصبحوا أفرادًا بلا هوية، وهذا ما عبر عنه القس زويمر في المؤتمر التنصيري الذي أقيم في القدس عام (١٩٣٥ م) بقوله: إن مهمتنا ليست تنصير المسلمين، فهذه مهمة لا طائل من ورائها، ولكن مهمتنا هي صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفي هذا نجحنا نجاحًا باهرًا بفضل مدارسنا التنصيرية، ومناهج التعليم التي وضعناها للعالم الإسلامي[١].

(١) مكانة التربية في العمل الإسلامي لمحمد قطب (ص: ٣٢) - دار الشروق - مصر.

والآن أصبح التركيز الأكبر على تغيير مفاهيم الإسلام وثوابته، وإعادة تفسيره بالشكل الذي يخدم أهدافهم.

ويمكنك -أخي القارئ- أن تتأكد من هذا الأمر إذا ما قرأت تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام (٢٠٠٧ م)، وهي من أكبر المؤسسات الفكرية في العالم، والتي تساهم في صنع القرار الأمريكي، فالتقرير يضع تصورًا محددًا لكيفية بناء شبكات مسلمة معتدلة بالمفهوم الغربي الأمريكي[١].

وسترى -أخي القارئ- من خلال قراءتك لهذا التقرير كيف أنهم يركزون على أهمية استعادة تفسيرات الإسلام من أيدي التيار الإسلامي وتصحيحها من وجهة نظرهم حتى تتماشى وتتناسب مع واقع العالم اليوم، وتتماشى مع القوانين والتشريعات الدولية، في مجالات الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وقضايا المرأة.

وسترى كيف أن التقرير يركز على أهمية إيجاد تعريف واضح ومحدد للاعتدال الإسلامي، وأن يصاغ هذا التعريف من قِبل الغرب، وأن يُصبح هذا التعريف هو الأداة والوسيلة لتحديد المعتدلين في العالم الإسلامي، من أدعياء الاعتدال -من وجهة نظرهم- الذي لا يتوافق مع التعريف الأمريكي والغربي له.

ومن اللافت للنظر أن التقرير يؤكد على أهمية استخراج النصوص الشرعية من التراث الإسلامي، والتي يمكن أن تدعم أطروحات الغرب لإعادة تفسير الإسلام! وأن يُستَخدم بعض الدعاة للقيام بهذا الدور.

ويوصي التقرير أن تكون الدعوة للاعتدال بعيدًا عن المساجد، وأن تستخدم

(١) قام المركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة بترجمة التقرير وعرض أهم فقراته في كتابه بعنوانه: «إستراتجيات غربية لاحتواء الإسلام».. قراءة في تقرير راند ٢٠٠٧.

البرامج التلفازية، والشخصيات ذات القبول الإعلامي والجماهيري من أجل تحقيق ذلك!

إننا -كما يقول د. باسم خفاجي- أمام محاولة لإعادة تعريف مفهوم الاعتدال داخل المجتمع المسلم، بحيث لا يستند التعريف من الآن فصاعدًا إلى مبادئ الوسطية والتراحم التي حثت عليها الشريعة، وإنما أن تتحول هذه المبادئ إلى مجموعة من الـمُسلَّمات الغربية تقدم للعالم على أنها مبادئ أولية[١].

من مظاهر نجاح الحرب الفكرية

لعلك -أخي القارئ- تذكر ما حدث منذ قرابة العامين[٢] عندما تم الإعلان عن نية امرأة مسلمة القيام بإلقاء خطبة الجمعة وإمامة المسلمين من الرجال والنساء في الولايات المتحدة الأمريكية، وما صاحب ذلك من ضجة إعلامية واستنكار في أوساط العالم الإسلامي، وبالفعل قامت هذا المرأة بإلقاء خطبة الجمعة، ونقلت لنا الكاميرات صورًا للرجال والنساء ينصتون إليها وهم جلوس بجوار بعضهم البعض.

ومنذ بضعة أسابيع (في أواخر عام ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م) طالعتنا الصحف بصور فوتوغرافية جديدة لنفس المرأة وهي تخطب الجمعة وتؤم المصلين من الرجال والنساء في بلدة من بلدان أوربا.

والجديد في هذه المرة عدم حدوث تفاعل مع الحدث، أو استنكار له من قبل

(١) من مقال في مجلة البيان عدد (٢٣٦) بعنوان: المفهوم الأمريكي للاعتدال الإسلامي بقلم د. باسم خفاجي.

(٢) كان هذا في عام ٢٠٠٧ تقريبًا، قبل عامين من تاريخ الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

العلماء كما حدث في المرة الأولى، لتنجح الحرب الفكرية في هذه الجولة، وتبدأ العقول المسلمة في قبول فكرة أن الإسلام لا يمانع من إمامة المرأة للرجال، والاختلاط بين الجنسين في الصلاة؛ ومن ثم في غيرها.

يا أهل المدينة: لا مدينة لكم

في بداية معركة اليمامة والتي كانت بين جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين جيش المرتدين بقيادة مسيلمة الكذاب حدثت هزيمة للجيش الإسلامي، واستشهد العديد من المسلمين، فاستشعر الصحابة الخطر المحدق بالإسلام لو انتصر مسيلمة، فبدؤوا حملة استنفار ضخمة لشحذ الهمم، وبذل أقصى ما يمكن بذله من جهد، وصعد البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكان مرتفع وصرخ في المسلمين قائلًا: «يا أهل المدينة: لا مدينة لكم، وإنما هو الله وحده والجنة»[1].

فكان لهذا النداء الصادق أثره الإيجابي في زيادة شعور المسلمين بالخطر، وما تبع ذلك من استنفار لكل طاقاتهم في القتال مع عظيم توكلهم على الله عَزَّوَجَلَّ، فكان النصر المبين بإذن الله.

وهذا هو المعنى الذي ترمي إليه هذه الأسطر.. أن نستشعر الخطر المحدق بالإسلام... ولا يخطئ من يقول بأن الوضع الذي تعيشه الأمة الآن أشد خطرًا من الوضع الذي عايشه المسلمون في بداية معركة اليمامة.

«إن الأمة الإسلامية بأكملها تواجه حربًا فكرية بدأت، وتم حشد الأنصار لها، والمراكز الفكرية في الغرب تقوم بحشد الآراء والتوجهات والموارد من أجل ذلك،

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٨/ ٢٥٣، برقم: ٣٤٤١٠) بتحقيق عوامة كتاب البعوث والسرايا باب حديث اليمامة ومن شهدها.

فــلا بد أن يكــون رد الفعل من قبــل الأمة بجميع فئاتها متناســبًا مــع هذا الخطر الشديد»[١].

ومع ذلك، فإننا نوقن بأن هذا الخطر الشــديد يمكن التصدي له، ودحره إذا ما صحَّ منا العزم، وازداد التشمير لإيقاظ الأمة وبث الروح فيها، وكيف لا، والأمر كله لله، وهو وحده الذي يتولى تســيير شــؤون هــذا الكون؟ فإذا مــا رأى منا الصدق والحرص والعزيمة الوقَّادة، والاســتعداد التام لبذل غاية الجهد من أجل نصرة دينه فإنه سبحانه سيدفع عنا هذه الهجمة الشرسة، ولعل ما حدث في غزوة الأحزاب خير دليل على ذلك: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

خطر الاستبدال

ومن الأخطــار التي ينبغــي أن تقض مضاجع الدعــاة والعاملين للإسلام، وتجعلهم في حالة دائمة من الاستنفار: خطر الاستبدال.

ولكي نتعرف على هذا الخطر، فإن من المناسب التذكير بمكانة الأمة الإسلامية بالنســبة للبشرية، ونقطة البداية في هذه المسألة تبدأ بالتذكير بأن الله عَزَّوَجَلَّ يريد الخير للنــاس جميعًا، ولا يرضى لهم الكفر، ومراده دخولهــم جميعًا الجنة: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ومن دلائل رحمة الله العظيمة بالبشر جميعًا تلك الرســالات المتتالية التي أرسلها إليهــم والتي تبشرهم بالجنــة، وتخوفهم من النار، وترســم لهم طريــق الهداية إليه -سبحانه- وإلى جنته.

(١) من مقال المفهوم الأمريكي للاعتدال الإسلامي د. باسم خفاجي مجلة البيان عدد (٢٣٦).

ولقد اصطفى الله عَزَّوَجَلَّ أمة الإسلام لكي تقوم بمهمة تبليغ رسالته الأخيرة للبشرية جمعاء: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولأن القرآن هو رسالته الأخيرة؛ لذلك فهو سبحانه لن يستبدل بالأمة الإسلامية أمة أخرى في مهمة هداية البشرية وإيصال رحمته للعاملين، كما حدث من قبل مع بني إسرائيل حينما استبدل بهم أمة الإسلام بعد خيانتهم للأمانة.

هل قامت الأمة الإسلامية بمهمة البلاغ؟!

قامت الأجيال الأولى للأمة بأداء مهمتها خير قيام، وتحركوا في كل مكان لتبليغ الرسالة، ثم حدث ما حدث بعد ذلك من ضعف، وتكالب على الدنيا، وصراع من أجل الرئاسة فيها، فانتكست الأمة؛ ومن ثم تركت وظيفتها ومهمتها الأساسية في هداية البشرية.

وكل يوم جديد يموت الكثيرون والكثيرون على الضلالة؛ لأنهم -من جانبهم- لم يبحثوا عن الطريق الصحيح، وعن غاية وجودهم في الدنيا، ومن جانب آخر فإن المكلفين بتبليغهم رسالة الله لم يقوموا بذلك، وخانوا الأمانة، أو قصروا في أدائها.

من هنا ندرك بعضًا من حِكم الابتلاءات والعقوبات المتتالية التي أصابت الأمة؛ لأنها..

أولًا: أهملت الرسالة ولم تعمل بما تضمنته، ولم تُقِم الإسلام في قلوبها، ولم تنصر الله على أنفسها.

ثانيًا: لأن الأمة أيضًا خانت أمانة بلاغ الرسالة والشهادة على العالمين الذي هو

المحور الثاني لوجودها.. قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ: سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»(١).

طليعة الإنقاذ

ومع العقوبات المتتالية للأمة إلا أنها لم تفق من غفلتها، ولم تَعد لسيرتها الأولى.

ولأن الله عَزَّوَجَلَّ قد كتب ألا يستبدل أحدًا بهذه الأمة؛ كانت رحمته بها وبالبشرية أن أيقظ مجموعة من الأمة لتقيم الرسالة في ذواتها أولًا، ثم تتولى بعد ذلك مهمة إيقاظ الأمة وإقامة الدين بشموله فيها، ليقوم مجموع الأمة -تبعًا لذلك- بأداء وظيفتها الرئيسة، والغافلة عنها، ألا وهي: إنقاذ البشرية، وإسعادها بالإسلام: ﴿**وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال: ٣٩]. ولقد تمثلت هذه الرحمة الإلهية في الدعاة إلى الله والعاملين للإسلام.

فالعاملون للإسلام يشكلون (طليعة الإنقاذ) لأنفسهم أولًا، ثم لأمتهم ثانيًا، ثم للبشرية جمعاء ثالثًا.

الغُنْم بالغُرْم

ولئن كان الله عَزَّوَجَلَّ قد شرَّف الدعاة والعاملين للإسلام باختيارهم لأداء هذه الوظيفة العظيمة، إلا أن هذا التشريف والاختيار مرتبط ومُرتهن بمدى التزامهم بها، من حيث التحقق برسالة الإسلام ومعانيه في قلوبهم وفي واقعهم، وفي بلاغه للعالمين،

(١) رواه أحمد في المسند: (٨/ ٤٤٠، برقم: ٤٨٢٥)، وأبو داود كتاب البيوع والإجارات باب النهي عن العينة (٣/ ٧٤٠، برقم: ٣٤٦٢).

فإن لم يفعلوا فسيرسل لهم الله عَزَّوَجَلَّ من الآيات ما يذكرهم بأهمية بذل الوسع والطاقة في سبيل إعلاء رايته، وذلك من خلال المحن والابتلاءات المتنوعة.

فإن لم يتذكروا بعد سلسلة الابتلاءات فإن سنة الله الصارمة هي الاستبدال كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

والذي يريد أن يتأكد من إمكانية جريان هذه السنة على العاملين للإسلام؛ ما عليه إلا أن يقرأ القرآن، ويتأمل في تاريخ بني إسرائيل، وكيف أن الله عَزَّوَجَلَّ قال عنهم في مرحلة من مراحل تاريخهم: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، ويتأمل كذلك كيف أن الله عَزَّوَجَلَّ استبدل أمة الإسلام بهم، بعد أن مروا بسلسلة طويلة من المحن والابتلاءات لعلهم يفيقون ويعودون إلى رشدهم ولكنهم لم يفعلوا.

وهذا أمر في غاية الخطورة، فالله عَزَّوَجَلَّ ليس بينه وبين أحد من عباده نسب ولا قرابة، ولقد شرَّف **(الدعاة)** باختيارهم لمهمة الإنقاذ، فإذا فرطوا فستتحول الدفة تدريجيًّا من أيديهم إلى أيدي فريق إنقاذ جديد، وسيجدون أنفسهم وقد أصبحوا -بتفريطهم- بعيدينَ عن شرف حمل هذه الرسالة.

إياك أن تكون من القاعدين

ومما تجدر الإشارة إليه أن الله عَزَّوَجَلَّ لن ينزل علينا كتابًا من السماء يخبرنا فيه باستبدال من سيُستبدل، ولكن بمرور الوقت، واستمرار التراخي، والانشغال بطين الأرض، وتناقص عدد من يحمل همَّ الدين، سيُظهر الله الجيل الذي تتوفر فيه الشروط التي يريدها سبحانه، وسيصبح الآخرون أثرًا بعد عين، وتاريخًا مضى بعد واقع ملموس، وذكريات يتذكرونها عند ملاقاة بعضهم البعض.

فإن كنت في شك من وجود هذا الخطر فاقرأ ما قاله صاحب الظلال وهو يوجه حديثه للدعاة:

«أيها الدعاة»: إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنٌّ وعطاء. فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلًا لهذا الفضل، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم تدركوا قيمة ما أُعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه.. فإن الله يسترد ما وهب، ويختار غيركم لهذه المنة ممن يُقَدِّرُ فضل الله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨][(١)].

وصدق الله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وعندما تحدث البنا عن معنى الثبات قال: أن يظل الأخ عاملًا مجاهدًا في سبيل غايته، مهما بعدت المدة وتطاولت السنوات والأعوام، حتى يلقى الله على ذلك وقد فاز بإحدى الحسنيين[(٢)].

فإن لم يظل عاملًا مجاهدًا في سبيل غايته، وقعد أو تراخى، ورضي بوجوده بين أصحابه دون جهد حقيقي يبذله في المشروع الإسلامي فقد ترك مكانه وإن لم يترك، وأصبح من القاعدين وإن ادَّعى غير ذلك إلا إذا جدد العزم وعاد إلى سيرته الأولى.

السؤال أمام الله عَزَّوَجَلَّ

ومن الأخطار الحقيقية التي تواجه كل فرد على حدة:

ملاقاة الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة؛ وما ستتضمنه هذه المقابلة من أسئلة علينا أن نجهز

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٠٣).
(٢) رسالة التعاليم (ص: ٣٦٣).

أنفسنا للإجابة عنها، والتي تتضمن سؤالًا عن الجهد الذي بذله المسلم لإقامة الإسلام، ونصرة المستضعفين، وتبليغ رسالته سبحانه للعالمين:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

فلقد أخبرنا القرآن بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد فضَّل أمة الإسلام على الأمم الأخرى، وخصها برسالته الخاتمة لتقوم بأمرين عظيمين:

أولهما: أن تتمثل الرسالة في ذواتها.

وثانيهما: أن يقوم أبناؤها بتبليغ هذه الرسالة للبشرية جمعاء، وأن يُحسنوا البلاغ حتى ينقذوا كل من بداخله خير وشوق إلى الهداية، وفي الوقت نفسه يقيمون الحجة على المجرمين المعاندين، فإذا ما وقفوا أمام الله عَزَّوَجَلَّ قاموا بالشهادة على الناس: «هؤلاء قمنا بتبليغهم الرسالة واستجابوا، وهؤلاء قمنا بتبليغهم الرسالة ولم يستجيبوا».

والجدير بالذكر أن الرسول ﷺ سيقوم بالشهادة على أمته: من منهم سار على نهجه واتبع طريقه؟ ومن منهم خالفه وخان أمانته؟!

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١].

فهل أعددنا جوابًا لسؤال الشهادة على الناس يوم القيامة؟!

وماذا نتوقع عن شهادة رسول الله ﷺ علينا؟ هل ستكون لصالحنا أم ضدنا؟!

ولقد جمع هذه المعاني قوله تعالى:

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨].

ولنعلم جميعًا بأنه ليست كل أعذار القعود ستُقبل.. تأمل قوله جل ثناؤه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ [النساء: ٩٧].

أمانة الشهادة لهذا الدين

ويؤكد صاحب الظلال هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فيقول:

ومن هذه الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين.. الشهادة له في النفس أولًا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له.. ترجمة حية في شعورها وسلوكها، حتى يرى الناس صورة الإيمان وأحسنه وأزكاه؛ وهو يصوغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال؛ فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون.

.. والشهادة له بدعوة الناس إليه، وبيان فضله ومزيته -بعد تمثل هذا الفضل والمزية في نفس الداعية- فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان، وهي إحدى الأمانات.

.. ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض؛ منهجًا للجماعة المؤمنة، ومنهجًا للبشرية جمعاء..

المحاولة بكل ما يملك الفرد من وسيلة، وبكل ما تملك الجماعة من وسيلة. فإقرار هذا المنهج في حياة البشر هي كبرى الأمانات؛ بعد الإيمان الذاتي، ولا يُعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة.. ومن ثم فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة على هذا الأساس.. أداء لإحدى الأمانات[1].

• • •

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٦٨٨).

وسائل تغذية الشعور بالخطر

لكي يستمر المرء في حالة من التذكر الدائم للأخطار التي تواجهه وتواجه أمته لا بد من وجود وسائل تغذي مشاعره، وتُشعره دومًا بأن الخطر قريب فيزداد قلقه؛ ومن ثم عزمه وتشميره.

ومن أهم هذه الوسائل:

كثرة تلاوة القرآن بترتيل وتفهُّم وإنصات

فمن أعظم وظائف القرآن في حياة المسلم أنه كتاب هداية، وتذكرة، وتبصرة، وهو أيضًا يلهب المشاعر، وينشئ الإيمان، ويوقد العزائم، ويولد الطاقة الدافعة للعمل.

والقرآن بشير ونذير لكل مسلم يدفعه دومًا لتنفيذ أوامر الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه وفي مجتمعه، بل ويستحثه للدعوة إلى الله وتبليغ رسالته للعالمين، ويذكره بحقيقة الدنيا، وأن الموت يأتي فجأة، وأن كل فرد سيقف بمفرده أمام ربه... كل ذلك في خطاب يمزج بين القناعة العقلية والانفعال القلبي الوجداني ليتولد الإيمان والقوة الدافعة للعمل؛ لذلك نجد أن الله عَزَّوَجَلَّ قد وصفه بأنه (روح): ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا**﴾ [الشوري: ٥٢].

ولقد كان القرآن الكريم أكبر محرك لعزائم الصحابة -رضوان الله عليهم- فهذا أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ سورة (براءة) فيأتي على هذه الآية: ﴿**ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا**

﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]. فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخًا وشبابًا، جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفن فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير فدفنوه فيها[١].

وفي القادسية وقبل بدء المعركة، صلى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالناس الظهر، ثم خطب الناس ووعظهم وحثهم وتلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ثم قرأ القُرَّاء آيات الجهاد وسوره.

وبعد انتهاء المعركة، وانتصار المسلمين كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كتابًا يخبره فيه بالفتح، فكان مما فيه: «**وَأُصِيبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سعد بن عبيد القاري، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم.. كانوا يدوون بالقرآن إذا جَنَّ عليهم الليل كدوي النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود**»[٢].

والآثار الواردة عن تأثير القرآن في تحريك العزائم، وشحذ الهمم، وبث الروح أكثر من أن تُحصى في هذا المكان، ولكن يبقى التذكير بأن هذا الأثر لن يحدث إلا إذا أكثرنا من تلاوة القرآن، وفتحنا له القلوب، وأعملنا عقولنا في فهمه -ولو بصورة

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٥٢، برقم: ٧١٨٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١١٤، برقم: ٢٥٠٣)، وقال : إسناده صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبري في التاريخ (٣/ ٥٨٣)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٥٤).

إجمالية- مــع الترتيل والصوت الحزين ليحدث التعانق بــين الفكر والعاطفة فينتج الأثر المطلوب[١].

وأيضًا هناك وسيلة في غاية الأهمية لا بد أن تصاحبنا أثناء تلاوتنا للقرآن، وهي الإنصــات التام -قدر المســتطاع- لما نقرأ أو نســمع من الآيات، **فــما هو المقصود بالإنصات؟**

الإنصات هو أعلى درجات تركيز المرء مع الصوت، سواء أكان هذا الصوت يأتيه من مصدر خارجي، أم كان يردده بلسانه، أم يقرؤه بعينه.

فقد يحدث أن يسمع الشخص كلامًا وهو شارد الذهن يفكر في موضوع (ما)؛ مما يجعله لا يستمع لما يتلقاه بالكلية ولا يفهم المراد من الكلام.

وقد يحدث أن يســمع كلامًا وهو يريد سماعه لكنه ليس بصافي الذهن، فهو هنا يستمع للكلام ويعرف محتواه، ولكنه غير مستغرق معه، كأن يفكر في موضوع آخر في الوقت ذاته، أو يســتمع إلى كلام آخر، أو يناجي من حوله، كقوله تعالى: ﴿**إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ**﴾ [الإسراء: ٤٧].

فإذا ما شعر المرء بأهمية ما يســمع أو يقرأ، وكان الكلام مما تشتد حاجته إليه:... تجــده يُصغي ســمعه وينصــت، فينتقل من مرحلة الاســتماع إلى مرحلــة الإنصات والإصغاء؛ حيث التركيز التام لما يتلقى لدرجة الاستغراق والتوحد مع ما يتلقاه.

---

(١) ولقد تم -بفضل الله- بيان الوسائل المعينة على الانتفاع -بإذن الله- بالقرآن في تحصيل الإيمان في غير هذا الموضع بشيء من التفصيل، وذلك في كتب (تحقيق الوصال بين القلب والقرآن- العودة إلى القرآن- غربة القرآن- إنه القرآن سر نهضتنا). فيمكنك -أخي القارئ- الرجوع إلى أيٍّ من هذه الكتب في هذا الموضوع بإذن الله.. وهي متوفرة بفضل الله على موقع الإيمان أولًا، بالإضافة إلى كتاب: الطريق الوحيد، والذي سيكون متاحًا على الموقع قريبًا بإذن الله.

وهذا الصنف الثالث هو الذي حثنا الله -جل شأنه- على الاتصاف بحالهم عند التعامل مع القرآن العظيم، سواء أتلوناه بألسنتنا أم استمعنا إليه من غيرنا:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

[الأعراف: ٢٠٤].

ويقص علينا القرآن المجيد قصة الجن حين استمعوا القرآن للمرة الأولى، فقد أدركوا أهميته القصوى، وحاجتهم الماسة إليه فماذا قالوا؟! ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فحريٌّ بنا أن نفعل مثل ما فعلوا حتى ننتفع بالقرآن: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

وغنيٌّ عن البيان القول بأن الحديث عن القرآن الكريم يشمل السنة النبوية بالتبعية، فالسنة شارحة للقرآن، مبينة لما أُجمل فيه، وهي الوحي الثاني..

قال رسول الله ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمُ اثْنَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا أَبَدًا؛ كِتَابُ اللهِ، وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»(١).

التعرف على مآسي المسلمين ومخططات أعدائهم

ومن وسائل تغذية الشعور بالخطر التعرف على أحوال المسلمين في كل مكان وما يتعرضون له من مآسٍ، مع استشعار المسئولية نحوهم، ولقد كان هذا هو دأب

(١) رواه بهذا اللفظ: البزار (١٥/ ٣٨٥، برقم: ٨٩٩٣)، والحاكم (١/ ١٧٢، برقم: ٣١٩)، قال ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٣١): هَذَا مَحْفُوظٌ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ شُهْرَةً يَكَادُ يُسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الْإِسْنَادِ الحديث الثاني والثلاثين من البلاغات.

المصلحين. يقول البنا: ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء، ونفكر في العلاج وحسم الداء، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء[١].

فلتكن مجالسنا مجالس تذكير بالله، وبالمهمة التي كلفنا بها، ومدارسة أحوال الأمة ومآسيها، ومخططات أعدائها.

القراءة في الكتب التي تشحذ الهمم

وذلك لكي نخرج منها -بإذن الله- بقوة نفسية عظيمة تدفعنا لبذل أقصى الجهد لخدمة ديننا، وإن كنا نعتقد أن في القرآن والسنة كفاية.

ولكن هناك العديد من الكتب التي كتبها أصحابها ممتزجة بمداد مشاعرهم الفياضة، وحرقتهم على الأمة، فإذا ما قرأنا فيها انتقلت حرارتها إلينا، وساعدت -بإذن الله- في إبقاء العزائم متقدة، والروح يقظة. لا سيما أولئك الذين تأثروا بالقرآن وانتفعوا به، كما يحس ذلك كل من يقرأ في ظلال القرآن.

ومن هذه الكتب:

- «المسؤولية» لمحمد أمين المصري.
- «روائع إقبال» لأبي الحسن الندوي.
- «آن الأوان لتجديد الإيمان» د. عبد الستار فتح الله سعيد.
- «علو الهمة» لمحمد إسماعيل المقدم.

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس (ص: ١١٧).

التعرف على القدوات العملية والابتعاد عن صحبة البطالين

يقولـــون: (القدوة إمامة بلا إمـــارة)، فالروح تسري من خـــلال التواصل بين أصحاب الهمم، والقـــدوات العملية، والنماذج الحية، وبين غيرهم، وفي المقابل، فإن الابتعـــاد عن المجالس الفارغة وصحبة البطالين له أثر كبير في تجنب المؤثرات المثبطة للهمـــم والعزائم، والآية الكريمة تذكر النوعين آمـــرة ومحذرة: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

وتبقـــى العقبة التي ينبغي اجتيازها حتى تســـتمر العزائم في التوقد، والروح في اليقظة، ألا وهي عقبة تشـــعب الهمـــوم بالدنيا؛ وهذا يحتـــاج إلى بعض التفصيل في الصفحات القادمة.

• • •

هجرة معنوية نحتاجها

من الأمور التي من شأنها أن توهن العزائم، وتعود بنا القهقرى: التعلق بالدنيا، وتشعُّب الهموم في أوديتها، والحرص على العلو فيها من أجل تحقيق الذات، والمجد الشخصي للفرد، ولقد أوضح القرآن الكريم هذا المعنى، وبيَّن أن من أهم أسباب عدم بذل الجهد في سبيل الله هو التعلق بالدنيا وطينها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨].

وليس معنى هذا هو ترك الدنيا، أو الانعزال عنها، أو عدم السعي في تحصيل أسباب الرزق منها؛ بل المقصد هو عدم انشغال القلب بها، أو استغراق الأوقات فيها، وتعلق النفس بزهرتها؛ لأن هذا هو رأس الخطايا والعياذ بالله تعالى.

الخروج من التيه

إن المرحلة التي تعيشها أمتنا اليوم تتشابه إلى حد كبير بمرحلة التيه التي عاشها بنو إسرائيل بعد رفضهم دخول الأرض المقدسة.

فبعد أن نجَّى الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقومه، وأغرق فرعون وجنده، سار موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ببني إسرائيل متوجهًا نحو الأرض المقدسة، وطلب منهم أن يدخلوها معه، فلما علموا أن فيها قومًا جبَّارين خافوا من مواجهتهم ورفضوا

الدخول، وقالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

فكان العقاب الإلهي بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، وجاء الحكم الصارم: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [المائدة: ٢٦]، وظل بنو إسرائيل خلال هذه المدة يبحثون عن مخرج من التيه، وكلما توهموا مخرجًا اندفعوا إليه، وبذلوا فيه جهدهم، ليفاجأوا بعد ذلك أنه ليس سوى سراب.

وخلال مدة التيه مات موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، وتولى حكم بني إسرائيل من بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فتاه يوشع بن نون، وانقضت السنوات الأربعون، وأراد يوشع بن نون أن يحارب الجبارين، ويدخل الأرض المقدسة، لكن ما فعله الجيل الجبان مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن ليبرح مخيلته؛ لذلك فقد وضع شروطًا قاسية لمن يريد الخروج معه، فقال لقومه كما جاء في الصحيحين:

«لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ، وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ، وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا»(١).

فهنا نجد أن يوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ قد شخَّص السبب الرئيس الذي من أجله رفضت بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ألا وهو حب الدنيا والتعلق بها؛ لذلك اشترط على من يريد الخروج معه عدم انشغال البال أو تعلق

(١) رواه البخاري: كتاب فرض الخمس باب قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ (٤/ ٥٩، رقم: ٣١٢٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (٣/ ١٣٦٦، برقم: ١٧٤٧).

القلب بشيء من الدنيا، لأنه لو تساهل في هذه الأمر لخرج معه من تشعبت همومه وخواطره في أودية الدنيا، فيصبح كل ما يتمناه ألا يصاب بمكروه، وأن يعود سالماً حتى يستكمل مسيرته الدنيوية كما تطمح نفسه.

وما أدق ما قاله الإمام النووي في تعليقه على هذا الحديث وما يستفاد منه:

> **بأن الأمور المهمة ينبغي ألا تُفَوَّض إلا إلى أولي العزم وفراغ البال، ولا تُفوَّض إلى متعلق القلب بغيرها؛ لأن ذلك يُضعف عزمه، ويفوت كمال بذل وسعه فيه**[(١)].

ونحن إذ نعيش في أجواء التيه المعنوي، ونريد الخروج منها نحتاج إلى رجال من أولي العزم، وتوهج الإيمان.

فهل -يا أخي- سنكون من هؤلاء؟!

هل سنكون ممن يوحد همه، ويجعله في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، وحمل همّ هذا الدين، وإيقاظ الأمة؟! أم سنترك أنفسنا لتتنازعها زخارف الدنيا، وهي لا تنفك عن الهموم والمتاعب؟!

أَبشِرْ ثم أَبشِرْ..

وعليك أن تتذكر -يا أخي- أننا إن صدقنا مع الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه سبحانه سيتولى جميع أمورنا: ﴿ **وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ولك أن تقرأ هذا الحديث النبوي لتزداد بهذا المعنى يقينًا.. قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ، جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا، فَرَّقَ اللهُ**

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٥١) -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ»(١).

ويقول رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»**(٢).

.. ويقول بديع الزمان النورسي وهو يعيش في حالة من الامتنان لربه: لقد شهدنا بأم أعيننا دون مبالغة الكثير من آثار الإكرام الإلهي، والعناية الربانية زهاء ست سنوات من سير خدمتنا للقرآن الكريم، إننا نُربَّى بشفقة ورأفة، وتجري معيشتنا بعناية بحيث يحسن إلينا صاحب العناية الذي يستخدمنا في هذه الخدمة بما يحقق أصغر رغبة من رغبات قلوبنا، وينعم بها علينا من حيث لا نحتسب(٣).

فماذا تريد -أخي- بعد هذا؟!

الهجرة المطلوبة

لقد هاجر المسلمون الأوائل من مكة إلى المدينة تاركين ديارهم وأموالهم وأقاربهم وذكرياتهم، وتاركين الكعبة والبلد الحرام.. تركوا هذا كله، وذهبوا إلى المجهول في يثرب.. منهم الرجل والمرأة، والشاب، والشيخ الكبير...

فعلوا هذا الفعل العجيب من أجل إرضاء الله عَزَّوَجَلَّ ونصرة دينه.

هاجروا وهم لا يعلمون ماذا سيحدث لهم بعد ذلك؟ هل سيجدون لهم مأوى؟ هل سيعيشون آمنين؟ هل سيجدون ما يأكلونه ويعيشون منه؟ هل.. هل، لكنهم

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥/ ٤٦٧، برقم: ٢١٥٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة باب ٣٠ (٤/ ٦٤٢، برقم: ٢٤٦٦)، وابن حبان (٢/ ١١٩، برقم: ٣٩٣)، والحاكم (٢/ ٤٨١، برقم ٣٦٥٧)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣) المكتوبات (ص: ٤٨٥).

هاجروا ونُصب أعينهم ابتغاء رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، والانتصار له سبحانه ولرسوله... وكانوا صادقين في هذا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

فأصبحوا خلال سنوات معدودة سادة الدنيا، وأوفى الله بعهده معهم ومكنهم في الأرض: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ﴾ [التوبة: ١١١].

ونحن في هذه المرحلة الدقيقة التي تمر بها أمتنا نحتاج إلى هجرة أخرى، ولكنها من نوع خاص..

نحتاج إلى هجرة معنوية من هموم الدنيا إلى همٍّ واحد، هو العمل على رضا الله ونصرة دينه.

هجرة من طموحات الطين إلى طموحات الدين.

إنها هجرة عظيمة تحتاج إلى قرار وعزم وتصميم.

هجرة لا بد منها إن أردنا أن نكون من الجيل الذي يستخدمه الله عَزَّوَجَلَّ لإيقاظ الأمة وإنقاذ البشرية، بعد أن تفيض عليه السعادة في ذات نفسه.

فهل أنت مستعد لها؟!

إنها لا تحتاج منك إلى ترك عملك، أو دراستك، أو أهلك، بل تحتاج إلى قرار تتخذه، وعزم تعزم عليه بأن تكون حياتك الباقية لخدمة هذا الدين وإيقاظ الأمة، فإن رأى الله منك صدقًا أكيدًا في عزمك فسيهيئ لك الأسباب التي تساعدك على تنفيذ ما عزمت عليه، وسيريح بالك من هموم الدنيا.. وإن ضاقت عليك.

هيا خذ القرار الآن، وارفــع يديك متضرعًا إلى مولاك واطلب منه -صادقًا- الإعانة والتوفيق، وضع نصب عينيك قوله ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ، وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»(١).

وتذكَّر وصية عبد القادر الجيلاني:

يا غلام! لا يكن همُّك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس، وما تنكح، وما تســكن، وما تجمع، كل هذا همُّ النفس والطبع، فأين همُّ القلب؟ همُّك ما أهمَّك، فليكن همُّك ربك عَزَّوَجَلَّ وما عنده.

وتمثل دومًا قول الشاعر:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

• • •

(١) رواه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت (٤/ ٢٠٦٣، برقم: ٢٦٧٩). وبنحوه عند البخاري كتاب الدعوات باب ليعزم المسألة فإنه لا مستكره له (٧/ ١٩٧، برقم: ٦٣٣٨).

وأخيرًا
ماذا تنتظر.. هيا ابدأ

أخي..

ما الذي تنتظره؟! فالفرصة أمامك الآن لكي تُصبح من جيل الإنقاذ لهذه الأمة.

هيا نبدأ جميعًا، وليتخذ كل منا القرار ويعزم عزمة صادقة بأن يكون من ذلك الجيل الذي سيوقظ الأمة ويخرجها -بإذن الله- من تيهها، ويُعيدها إلى ربها..

هيا.. نستغيث ونتضرع إلى الله بأن يُهيئ لنا من أمرنا رشدًا، ويسبب لنا الأسباب التي تخرجنا من هموم الدنيا، وتدفعنا نحوه سبحانه ونحن في عافية، وأن يحقق مرادنا، ويبلغنا آمالنا في مرضاته، وأن يجعلنا ممن يحقق بهم وعده في إتمام نوره على العالمين.

وفي خضم تضرُّعك -أخي الحبيب- لا تنسَ كاتب هذه السطور بدعوة مخلصة بالمغفرة والرحمة والثبات وحسن الخاتمة.

والحمد لله الذي هدانا لهذا.. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
لمن الخلق والأمر والتدبير؟!	٨
لله الأمر جميعًا	٩
عنده خزائن كل شيء	١١
يدبر الأمور كلها	١٤
هذا هو ربك الحي القيوم	١٦
قانون السببية	١٨
كل شيء بأمره وإمداده	١٩
حقيقة الربانية	٢١
هل نترك الأسباب؟!	٢٣
التوكل وإنجاح الأسباب	٢٤
الإمداد على قدر الاستعداد	٢٦
العجز والفقر الذاتي	٢٧
أين حرية الاختيار؟!	٢٨
كيف نستجلب الإمداد الإلهي؟	٣٠
ما هو العزم؟	٣٠

أولو العزم..... ٣٢
عزم الأمور..... ٣٣
البداية من العبد ٣٣
سؤال الله العزيمة على الرشد ٣٥
عزيمة امرأة ٣٦
إن تصدق الله يصدقك ٣٦
اصدق الله فيه ٣٨
الخليفة الخامس ٣٨
رجل بأمة ٤٠
قصة الطالب والمسألتين ٤١
الهزيمة النفسية وغياب الروح ٤٣
الرسوم المسيئة ٤٤
خطورة الهزيمة النفسية على الأمة..... ٤٥
آثار الهزيمة النفسية على الفرد ٤٦
غياب الروح عن العاملين في حقل الدعوة ٤٧
الثكلى والمستأجرة ٤٨
اصمت.. لا تتكلم !! ٤٩
البداية.. عودة الأمل ٥١
لا تعتذر بالقضاء والقدر ولا تستسلم للهزيمة ٥١
عطايانا سحائب مرسلات..... ٥٢
ما الذي يمنعك أن تكون ذلك الرجل؟! ٥٥

أنا ضعيف وظروفي متشابكة ٥٦
الخطوة الأولى للنجاح ٥٧
واقترب الوعد الحق ٥٨
متى نؤثر في الناس؟! ٥٩
ليست حماسة فقط ٦١
كيف تبقى الروح يقظة والعزيمة مشتعلة؟! ٦٤
الشعور بالخطر وَقُود العزائم ٦٥
أخطارنا حقيقية ٦٦
الأجيال الجديدة والذوبان ٦٧
حرب الأفكار والمفاهيم ٦٧
يا أهل المدينة: لا مدينة لكم ٧١
خطر الاستبدال ٧٢
هل قامت الأمة الإسلامية بمهمة البلاغ؟! ٧٣
طليعة الإنقاذ ٧٤
الغُنْم بالغُرْم ٧٤
إياك أن تكون من القاعدين ٧٥
السؤال أمام الله عزوجل ٧٦
أمانة الشهادة لهذا الدين ٧٨
وسائل تغذية الشعور بالخطر ٨٠
كثرة تلاوة القرآن بترتيل وتفهم وإنصات ٨٠
التعرف على مآسي المسلمين ومخططات أعدائهم ٨٣

القراءة في الكتب التي تشحذ الهمم ٨٤
التعرف على القدوات العملية ٨٥
هجرة معنوية نحتاجها **٨٦**
الخروج من التيه ٨٦
أَبشِرْ ثم أَبشِرْ ٨٨
الهجرة المطلوبة ٨٩
وأخيرًا: ماذا تنتظر.. هيا ابدأ **٩٢**
الفهرس **٩٣**

• • •